الدكتور محمد علي البار

بوشكين

شاعر روسيا

و القرآن الكريم

دار كنوز المعرفة
جدة

الدكتور محمد علي البار

بوشكين

شاعر روسيا

و القرآن الكريم

كنوز المعرفة

شو بالإسلام واضحاً في كثير من مقالاته وأدبياته. . وفي فرنسا نجد موليير متأثراً بالإسلام. . ومن المعاصرين الفيلسوف أحمد عبد الواحد (رينيه) و(روجيه جارودي).

ومن الأدباء المحدثين نجد جيمس بولدوين الكاتب الأمريكي الأسود الذي اعتنق الإسلام ودافع عنه ودعا إليه بقوة وبأسلوب أدبي عالٍ رصين. . ومن ألمانيا المعاصرة نجد آن ماري شميل وزيجريد هونكه ومراد هوفمان. . . وكلهم قد أسلموا.

ولا بدّ للدارسين والمهتمين بالآداب العالمية من إبراز هذه الأعمال في سلسلة خاصة باللغة العربية، كما ينبغي نشرها بلغاتها الأصلية بطبعات خاصة وتنشر على نطاق واسع بالإضافة إلى طبعها باللغات العالمية الأخرى فهي تشكل مدخلاً هاماً لتصحيح صورة الإسلام والدعوة إليه بأقلام أبناء تلك الأمم.

ونحبُّ ها هنا أن ننوّه بشاعر روسيا الأعظم ألكسندر بوشكين لما لشعره من توهج إيماني قوي. . ورغم أن بوشكين يعتبر أعظم شعراء روسيا وباسمه تعرف الميادين وبعض المدن، إلاّ أن شعره الإسلامي مدفون مغمور لا يعرفه إلا القليل من المختصين. وذلك لأن القياصرة أولاً لم يرتاحوا لهذه النغمة الإسلامية في شعره. . . ثم جاء البلاشفة ومنعوا ظهور أي شيء يشيد بالقرآن والإسلام أو يدعو إليه.

وبوشكين هو الذي قال عنه ديستوفيسكي أديب روسيا والكلاسيكي العالمي، صاحب الجريمة والعقاب، والأخوة كرامازوف: «كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هدي بوشكين ولم تصنع الجديد من بعده، فكل البدايات كانت منه أشار بها علينا، فضلاً عن أننا صنعنا أقلّ مما أشار به علينا، ولكن في المقابل فإن الذي صنعه بوشكين جاء متفوقاً على الجميع وثريًا».

وقد أعجب الشاعر الملهم بوشكين بالقرآن الكريم أيما إعجاب رغم أنه لم يطّلع إلا على ترجمة غير دقيقة للقرآن الكريم، وهي التي قام بها المترجم بوسنيكوف عام 1716 في عهد القيصر الروسي بطرس الأكبر، والتي نقلها بدوره عن ترجمة فرنسية رديئة تمّت على يد المستشرق الفرنسي دي ريي عام 1647، ثم حسّنها من بعده فيريفكين سنة 1790 وإن كانت معتمدة على سابقتها.

وتصور قصيدة «الرسول» لبوشكين فترة العزلة والتأمل في غار حراء قبيل ظهور الوحي ثم ظهور جبريل عليه السلام بالوحي. يقول بوشكين على لسان الرسول (ترجمة د. مكارم الغمري):

يضنينا عطش الروح
وفي الصحراء الموحشة كنا نتمدد

فظهر لنا في مفترق الطريق
سارافيم ذو الأجنحة الستة
وبأصابع خفيفة مثلما في حلم
لمس قُرّة عيني
فانفرجت مقلتاي النبويتان
كأنهما عينا نسرٍ مذعور

وهو يشير بذلك إلى ما حدث من رهبة للمصطفى ﷺ عندما أتاه الوحي لأول مرة فرجع إلى خديجة رضي الله عنها يرجف بها فؤاده. واختار بوشكين النسر القوي لكي يصف به الرسول حيث يتحمل ثقل الرسالة والقرآن الذي عجزت الجبال عن تحمله، كما يصف جبريل بالسيرافيم والمقصود به (إسرافيل) ولعل ذلك من خطأ الترجمات التي لديه.

ويواصل بوشكين قصيدته التي تصور هذا الحدث الجلل فيقول واصفاً بدء الوحي على لسان الرسول ﷺ:

فأصغيت إلى رعدة السماء
وتحليق الملائكة في الأعالي
وسريان حركة أغوار البحار
ونمو الكرمة النائية
انحنى الملاك على فمي
وبيده اليمنى المضرّجة

وضع في فمي المشدوه
كل أقوال الحكمة

ثم يصف حادثة شق الصدر فيقول:

وشقَّ صدري بسيفه
واقتلع قلبي المرتجف
وأقحم في صدري المشقوق
جذوة متأججة النيران
فانطرحت في الصحراء كالجثة
وناداني صوت الله:
إنهض يا رسول وأبصر
لبِّ إرادتي،
وجُب البحار والأراضي
وألهب بدعوتك قلوب الناس

ويظل بوشكين وفيًّا محبًّا للرسول الكريم حتى يعلن أنه أصبح من عشاق سيرته النقية الطاهرة، فيقول:

كم هي جذابة الزينة المبهمة
لليالي الشرق الفاخرة
كيف تنساب الساعات
أمام عشاق الرسول

ويتذكر بوشكين مآثر الحج وما يصحبه من نقاء روحي

وصفاء قلبي يزيل آلام الحياة ووعثاء الطريق، فيقول:

تهب السماء للإنسان
عوضاً عن الدموع والبلاء الدائم
فالناسك الناظر إلى مكة سعيد
في سنوات الشيخوخة الحزينة

كم كان يتمنى وهو في شرخ الشباب أن يقضي يوماً تلك الشيخوخة، وهو يتمتع بالنظر إلى البيت الحرام والكعبة المشرفة وينعم بتلك السكينة والحياة الهانئة القانعة الناسكة. ولنستمع إلى بوشكين وهو يحاول أن ينقل بعض ما فهمه من ترجمات معاني القرآن إلى لغة الشعر النابضة فيقول (ترجمة د. مكارم الغمري):

أقسم بالشفع وبالوتر
وأقسم بالسيف وبمعركة الحق
وأقسم بالنجم الصبّاح
وأقسم بصلاة العشاء
لا لم أودعك

وهذه الأبيات توضح بعض ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[الفجر: 1 ـ 4] وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 1 ـ 3].

ويكرر بوشكين المعنى ذاته: لا لم أودعك.

ويتحدث بوشكين عن هجرة المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم وإنزال السكينة عليه، فيقول:

يا من في ظل السكينة... دسست رأسه حُبًّا
وأخفيته من المطاردة الحادة... بمياه الصحاري
ألم أهب لسانك... سلطة جبارة على العقول
أصمد إذن وازدري الخداع.

يا لله!! إن هذه السلطة الجبارة على العقول واضحة في هذا القرآن الكريم وفي كلمات النبي الأمين المشعّة بالنور... وقد كان بوشكين الشاعر المرهف ذا عقل جبار فخضع لهذا القرآن الكريم ولكلام النبي الأمّي الأمين.

ويختم بوشكين قصيدته عن النبي بقوله:

«أحب اليتامى وقرآني
وبشّر المخلوقات المهتزة»

نعم لقد صدع الرسول بأمر ربه بشيراً ونذيراً.

ويستلهم بوشكين سورة «الأحزاب» ليتحدث عن زوجات الرسول الطاهرات، فيقول:

إيه يا زوجات الرسول الطاهرات
إنكن تختلفن عن كل الزوجات

فحتّى طيف الرذيلة مفزع لكُنّ
في الظل العذب للسكينة
عشن في عفاف، فقد علق بكُنّ
حجاب الشابة العذراء
حافظن على قلوب وفيّة
من أجل هناء المؤمنين والخجلى.
ونظرة الكفار الماكرة
لا تجعلنها تبصرُ وجوهكنّ.
أما أنتم يا ضيوف محمد
وأنتم تتقاطرون على أمسياته
إحذروا، فبهرجة الدنيا
تُكدّرُ رسولنا
فهو لا يحب الثرثارين
وكلمات غير المتواضعين
شرّفوا مأدبته في خشوع
وانحنوا في أدب لزوجاته الشابات.

وإنك لتلمح قول الله تعالى في سورة «الأحزاب» في مطلع القصيدة حيث يقول المولى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الاحزاب: 30 ـ 34].

ونجد بوشكين بعد ذلك وهو ينقل لنا معاني سورة «عبس» في صورة شعرية جميلة، فيقول:

وتجهَّم الرسول وهو يتململ، بعد أن أحسَّ دنوّ الأعمى،
ويسرع، لكن الرسول لا يقدر أن يظهر له الحيرة
لأنه مع الكتاب السماوي معطي وثيقة.
لك يا رسول، لا للخارجين
بشّر بالقرآن في سكينة دون أن تجبر الكفار

ولكأننا نقرأ قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: 1 ـ 7]. وهي قصة ابن أم مكتوم المشهورة، فيحولها بوشكين من الترجمة الرديئة إلى تلك المعاني الشعرية الرائعة. . . ويستلهم بوشكين قوله تعالى: في سورة «عبس» ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: 17 ـ22]، فيقول شاعرنا المرهف:

علام يتغطرس الإنسان؟
على أنه جاء إلى الدنيا عارياً

على أنه يستنشق دهراً قصيراً
وأنه سيموت ضعيفاً مثلما ولد،
ألا يعلم أن الله سيميته
ويبعثه بمشيئته؟
وأن السماء ترعى أيامه
في السعادة وفي القدر الأليم

ويستلهم الشاعر قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: 24 ـ 31]، فيقول بوشكين:

ألا يعلم أن الله وهبه النار
والخبز والتمر والزيتون
ثم بارك جهوده،
فوهبه البستان والتل والحقل

ويستمر الشاعر في استلهامه سورة عبس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 33 ـ 42]، فيقول بوشكين:

لكن الملاك سيعود مرتين
وسيدوّي على الأرض رعداً سماويًّا
وسيفرّ الأخ من أخيه

ويبتعد الإبن عن أمه
ويمثُل الجميع أمام الله
صرعى من الرعب
ويسقط الكفار يغطّيهم اللهب والعفار.

وتأتي قصة إبراهيم عليه السلام والنمرود الذي تمرّد وطغى، وقال أنا أحيي وأميت، فيصيغها بوشكين مستلهماً آيات القرآن بصورة شعرية فريدة، فيقول:

معك في القديم يا قادر يا عظيم
توهّم أن يتبارى ممتلئاً بالكبرياء المجنونة
ولكن أنت يا إلّهي أفحمته.
أنت تقول: أنا أهبُ العالم الحياة
وأعاقب الأرض بالموت
فيدي مبسوطة على كل شيء.
قال المتكبر: وأنا كذلك،
أهب الحياة، وأعاقب أيضاً بالموت،
فأنا يا رب ندٌّ لك.
لكن خيلاء الإثم
خفتت من كلمتك الغاضبة:
سأرفع الشمس من المشرق
فارفعها أنت من المغرب

وهي تذكرنا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 258].

ولنستمع لبوشكين وهو يستلهم آيات القرآن والطبيعة ليحدثنا عن قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فيقول:

الأرض ساكنة، السماء بلا عمد
الخالق الذي نعتمد عليه
لن يسقط السيل على اليابس
ولن يقهرنا وإياك
لقد أضاءَت الشمس في الكون
وأضاءت أيضاً السماء والأرض
مثل نبتة كتان تمتلىء بالزيت
تضيء في مصباح بلوري
صلِّ للخالق فهو القادر
فهو يحكم الريح في يوم قائظ
ويرسل السحب إلى السماء
ويهب الأرض ظل الأشجار
إنه الرحيم، قد كشف لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحن النور...

ولتسقط الغشاوة عن الأعين.

يا الله! إنها دعوة صريحة نحو هذا النور الذي نزل على قلب محمد فأضاء هذا الكون: **فلننساب نحن أيضاً نحو النور... ولتسقط الغشاوة عن الأعين...** ذلك النور الذي أضاء قلب بوشكين الشاعر الملهم الرقيق الذي دعا قومه إلى الإيمان بهذا النور، بهذه الشفافية بهذا السمو، الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم...

لقد حوّل بوشكين تلك الترجمة الهزيلة لمعاني القرآن الكريم إلى معاني حيّة قوية مدهشة رائعة... تدعو بكل إخلاص إلى هذا النور الذي نزل على قلب محمد مستلهماً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية 35].

إن واجبنا هو أن ننشر هذه الكنوز التي حاول البلاشفة أن يطمسوا نورها، وأن تنشر على نطاق واسع بلغة بوشكين الأدبية العالية... وهو مجال عظيم للدعوة لله. ومجال عظيم لاكتساب الآلاف بل الملايين إلى صفوف المهتدين بهذا النور الذي انبثق من جبال مكة، وأشرق على فاران، وانطلق يغطي الخافقين...

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصّف: الآية 8] . . .

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك، بدأته بفصل عن الإسلام في القوقاس (القوقاز = القفقاس Caucasia). وهي منطقة جبلية تقسم إلى قسمين: الجزء الشمالي وهو من أوربا والجزء الجنوبي وهو من آسيا، ويفصل بينهما جبال البروز العالية الذرى، وقد فتحت المناطق الجنوبية، (وهي اليوم جمهوريات ثلاث: أذربيجان وجورجيا وأرمينية) في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بل وفتحت الداغستان ومدينة باب الأبواب (دربند) في عهد عمر رضي الله عنه. وهي من المنطقة الشمالية، وتتبع روسيا حالياً. ولم يأت عهد الإمام علي رضي الله عنه إلا وقد فشا الإسلام في أهلها. فهذه المناطق من القوقاس قد دخلها الإسلام مبكراً جداً في عهد الخلافة الراشدة وتوطّد في كثير من تلك المناطق وخاصة في الداغستان.

وأما روسيا فلم تصل إلى القوقاس إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي واحتاجت لأكثر من قرن للاستيلاء عليه في حروب متصلة مدمِّرة طوال القرن التاسع عشر الميلادي، بل وردحاً من القرن العشرين، ولا تزال القلاقل مستمرة في الشيشان وأبخازيا إلى اليوم في بداية القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد.

وقد كانت القوقاس صاحبة التأثير الأكبر على أدباء روسيا

وشعرائها لأسباب عدة، منها أن القيصر نفى مجموعة من هؤلاء الأدباء والشعراء إلى القوقاس، ومنهم شاعرنا الفذّ بوشكين، كما أن بعضهم أرسل مع الجيش الروسي الغازي. وقد أسرت طبيعة القوقاس الخلابة، وشعوبها الأبية خيال هؤلاء الأدباء والشعراء. وعرف كثير منهم الإسلام ودرس القرآن، ولو في ترجمات رديئة، وقرأ عن السيرة النبوية مما انعكس في أشعارهم وآدابهم كما رأيناه واضحاً فيما اقتبسناه من شعر شاعرنا العظيم ألكسندر بوشكين.

وكان تأثير القوقاس على بوشكين وكوكبة الأدباء الروس عظيماً. وممن تأثر بالقوقاس الشاعر الملهم ليرمنتوف خليفة بوشكين وحامل لواء الشعر بعده. ولنستمع إلى مقطع من قصيدة بوشكين في القوقاس (ترجمة د. طارق مردود):

القوقاز أسفل مني، وحيداً في القمة
أقف على الثلوج عند حدود الجداول
يحلّق دون رفيف معي على استواء
نسر صاعد من القمة البعيدة
أشاهد من هنا تشكل السيول
وأول حركات الانهدامات الرهيبة

* * *

هنا تمشي السحاب بدلال أسفل مني

ومن خلالها متفجّرة تهدر الشلالات

* * *

وقد نقلتُ القصيدة كاملة في فصل التأثيرات الإسلامية العربية في إنتاج بوشكين عند الحديث عن القوقاس. وقد كتب بوشكين العديد من قصائده عن القوقاس، منها «أسير القوقاس» وهي قصة فتى روسي أسره أهل القوقاس المسلمين الأشداء، ورغم أنهم أحسنوا معاملته لدرجة أن الأسير بدأ يحبّهم ويحبّ أخلاقهم وطباعهم. وقد قيدوا رجليه كي لا يفر وتركوه في أحد منازلهم فوق ذرى الجبال العالية، وأحبّته فتاة شركسية جميلة. وكانت تشاطره عشاءها، ثم ذات ليلة أتت بالمنشار وكسرت القيد وأخرجته إلى النهر ليهرب، وأرادها أن تهرب معه فرفضت، وسبح النهر إلى الضفة الأخرى، أما هي فقد ألقت بنفسها في أمواجه العاتية الهادرة الهابطة من أعلى القمة لتلقى حتفها. كما كتب قصة «مسلم فقير» يحب القرآن وزوجته، ويكدح في الحقل. وتطلب زوجته الحامل قشدة (القيمق) فيذهب يبحث لها عن هذه القشدة التي توحمت عليها. ومع التعب ينام على ضفاف جدول نهير بارد وأشجار ظلال وارفة نومة لم يستطع أن ينام مثلها القيصر.

وقصص بوشكين حول القوقاز وأهله كثيرة، وقد استعرضت جملة منها في فصل التأثيرات الإسلامية. ونجد نفس التأثير بل ربما أقوى عند ليرمنتوف الذي يقول:

سلام عليك يا قفقاسيا ذات الجبين الأبيض
أنا لست غريباً عن أرضك الجذابة
فقد عوّدتني في صغري منعزلاتك
ومنذ ذلك الحين سَرتْ أحلامي فوق سفوحك الجميلة
مندهشا
لرؤية الشرق الساحر
إيه يا أرض الجبال الحرّة
كم أنت متوحشة
ولكنك كم أنت جميلة
إيه يا قفقاسيا
كم كنتُ أحبُّ بناتك الجميلات المعصومات
وطبائع أبنائك الحربية

ويقول ليرمنتوف:

فربما سماء الشرق قد قرَّبَتني بلا إرادة مني
من تعاليم نبيّهم

ويتوهج ليرمنتوف في قصيدته «الرسول»، وهو يتوجه بالدعوة إلى قومه في مكة فيصدّونه، فيذهب إلى الطائف فيجد المزيد من الأذى حتى يرمونه بالحجارة ويدمون قدميه الشريفتين. فيقول على لسان الرسول محمد ﷺ مستخدماً خياله الشعري:

منذ أن منحني الإله الأزلي رؤيا الرسول (جبريل)
أقرأ في أعين الناس صفات الحنق والرذيلة
أخذت أنادي بالحبّ، وحقّ التعاليم الطاهرة
فكان أن ألقى الأقربون عليّ الحجارة في غيظ
دثّرتُ رأسي، وهربت من المدن أنا الفقير
وها أنذا أعيش في الصحراء
كالطيور يطعمها الله بلا مقابل
وأنا حافظ الوصية الخالدة
وتُذعنُ لي خليقة الكون
وتسمعني النجوم وهي تلعب بأشعتها
وحين اخترقت طريقي في عجلة
خلال المدينة الصاخبة
كان الكبار يقولون للصغار بضحكة ساخرة:
أنظروا هذا عبرة لكم
كان متكبّراً ولم يتواءم معنا
الأحمق كان يريد أن يقنعنا
بأن الله يشرِّعُ على لسانه
أنظروا إليه يا أطفال
كيف هو متجهم ونحيل وشاحب
أنظروا كيف هو فقير وبائس

* * *

وفي قصيدة أخرى يقول ليرمنتوف:

إنني لا أبحث عن عقيدة فلست نبيّا
رغم إنني أسعى بروحي إلى الشرق
حيث تندر الخنازير والخمر
وحيث ـ كما يكتبون ـ كان يعيش أجدادنا

وكما حذّر **بوشكين** في قصيدته الرائعة **«إسطمبول»** المسلمين من أوربا الماكرة التي تتربص بالمسلمين الدوائر حذّر ليرمنتوف الشرق من الغرب الذي يتآمر عليه لينهب ثرواته!!

وقد كتب ليرمنتوف رواية «بطل من هذا الزمان» ووصف فيها القوقاس وأهله الأشداء وجبال البروز العالية الذرى الشامخة الأبية. ويتحدث بإعجاب عن بطولة هؤلاء الشيشانيين الأشداء، وأنه رأى بعضهم أثناء القتال مثخنين بالجراح وأجسامهم مخرّقة كالمنخل بالرصاص، ومع ذلك يستمرُّون في استعمال سيوفهم وكأنهم لا يشكون من شيء.

يقول **بوشكين** في قصيده **«إسطمبول»**:

سابقاً مجّد الكفار اسطمبول (لأنها كانت قوية)
لكنهم سيسحقونها غداً
بكعب حديدي مثل أفعى هاجعة
ويمضون جانباً ويتركونها، هكذا
نامت اسطمبول قبل الفاجعة.

تنكّرت اسطمبول للنبيّ
فيه صدق الشرق القديم
عكّره الغرب الماكر
اسطمبول لأجل ملذات الرذيلة
غيّرت السيف والدعاء
تنكّرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة

***

عندها خبا شعاع العقيدة الساطع
أصبحت النساء في الأسواق تمشي
ويتسكع الكهول في زوايا الشوارع
وتردّد الرجال على الحريم
حيث ينام الطواشي[1] المرتشي

وهكذا يصرخ بوشكين منبّهاً اسطمبول أن تعود إلى دينها القويم وتتمسك بتعاليم نبيّها الكريم وأن تحذر الغرب المخادع

(1) الطواشي هو حارس الحريم، وكان من المخصيين. ومن واجبه أن يحافظ عليهن ويمنع دخول الرجال الغرباء، فأصبح الطواشي مرتشياً وقواداً ويتردّد الرجال على الحريم وتفسد الأخلاق وينتشر الزنا.

الذي يريدها أن تنسى تعاليم دينها باسم التقدم والحضارة. وللأسف انغمست اسطمبول في الترف. وأدّى الترف إلى الرذيلة. كما أدى الترف إلى الظلم، والظلم ظلمات... والبعد عن الجهاد والسيف يؤدي إلى الانهزام أمام الأعداء.

أقلعت إسطمبول عن المعركة، وصارت تشرب الخمر في أوقات الصلاة، عندها خبا شعاع العقيدة، وذهب نورها وألقها... واستخذت اسطمبول ملهيّة بملذّات الرذيلة، والعدو يطرق بابها ويستلب كل يوم جزءاً من أراضيها في البلقان وفي القرم... وفي القوقاس... ومع هذا فاسطمبول لم تفق بعد لأنها انغمست في حمأة الرذيلة وصارت تشرب الخمر في أوقات الصلاة.

وهو نقد حاد لا يقوله إلا مؤمن قوي الإيمان امتلأ قلبه غيرة على دين الله وعلى دار الخلافة لعلها تعود إلى مجدها السابق بالتزام طريق نبيها ودينها.

وقد استعرضت في الفصل الأول: **الإسلام في القوقاس وأثره على روسيا وأدبائها وشعرائها**، ثم انتقلت إلى الإسلام على ضفاف نهر الفولجا (نهر أتل كما يسميه المؤرخون المسلمون)، وكيف أن أهل بلغار الفولجا أسلموا بواسطة التجار والدعاة إلى الله في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وأرسل ملكهم يلمش بن يلطوار رسالة إلى المقتدر

العباسي يطلب منه إرسال معلمين للدين ومهندسين لبناء استحكامات عسكرية لصدّ هجوم دولة الخزر القوية التي تهوّد ملكها بالاسم، وبقي هو ورعيته على عاداتهم الوثنية. كما طلب منه إرسال مال لبناء هذه الاستحكامات والقلاع. وقد وصف ابن فضلان في رسالته ردّ الخليفة وتولية ابن فضلان لوفد ذهب من بغداد إلى مدينة البلغار الفولجا في رحلة استغرقت قرابة العام.

وفي القرن العاشر الميلادي كان أمير الروس (في كييف قبل أن تبنى موسكو) ويدعى فلادمير (978 ـ 1015) اعتنق الإسلام ثم ارتدّ عنه ليتزوج ابنة الإمبراطور البيزنطي الذي وافق على ذلك الزواج بشرط واحد هو تعميد فلادمير، ففعلها فلادمير[1].

ثم خضعت موسكو للحكم الإسلامي من مدينة السرا على نهر الفولجا، ثم مدينة قازان لمدة أربعة قرون. وسقطت المناطق الإسلامية بيد إيفان الرهيب سنة 960هـ/ 1552م (قازان) ثم استراخان عام 965هـ/ 1557م ثم مناطق من سيبيريا

(1) ذكرت ذلك الدكتورة مكارم الغمري في كتابها مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ونقلت عن مخطوطة روسيا قديمة كتبت عام 1113 أن فلادمير أمير روسيا أسلم ثم ارتد عنه ليتزوج ابنة الإمبراطور البيزنطي كما يقول المؤرخ الروسي ليخاتشوف في كتابه «الإرث العظيم، موسكو، 1975» ص 58.

الإسلامية، ثم تتالت سقوط المناطق الإسلامية فسقطت إمارة قاسموف عام 1092هـ/ 1681م ثم القرم 1197هـ/ 1783م ثم القوقاس. والسبب في ذلك اختلافات الحكام المسلمين ومحاربتهم لبعض، والاستعانة أحياناً بالعدو ضد الأخ وابن العم. ثم الانغماس في الترف وترك الجهاد. كما استعرضناه في قصيدة بوشكين الرائعة «اسطمبول».

وفي الفصل الثاني بدأته بالتعريف بإسكندر بوشكين وما قاله عنه الأدباء والمؤرخون مثل جوجول (مؤسس فن الرواية الروسية وصاحب المعطف والمفتش والأرواح الميتة) الذي قال عنه: «عند ذكر اسم بوشكين تومض على الفور الفكرة بخصوص شاعر روسيا القومي. . . لقد انعكس فيه كل غنى وقوة ومرونة اللغة الروسية. . . إن بوشكين ظاهرة استثنائية وربما الوحيدة للروح الوطنية الروسية. إن الطبيعة الروسية والروح الروسية واللغة الروسية والطباع الروسية قد انعكست فيه بكل نقائها وجمالها البهيّ».

ويقول الناقد الأدبي **تشيرنيشيفسكي**: «إن بوشكين هو أول شاعر تربع في قلوب وعيون الجمهور الروسي على ذلك العرش الرفيع الذي يجب أن يشغله الكاتب العظيم في بلاده لأن أساس تطور الأدب الروسي كان قد حُدِّد وسوف يرسم في المستقبل من قبل بوشكين».

وقال **ديستوفيسكي**: «إن كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هَدي بوشكين، ولم تصنع الجديد من بعده. فكل البدايات كانت منه. أشار بها علينا، فضلاً عن أننا صنعنا أقل مما أشار به علينا، ولكن في المقابل فالذي صنعه بوشكين جاء متفوقاً وثرياً».

وقد استعرضت العديد من هذه الأقوال لعمالقة الأدب الروسي الذي اعترفوا له بالصدارة وأنه شاعر روسيا الأكبر والذي لم يبلغ أحد بعد مرتبته.

ثم ترجمت لحياة بوشكين من مولده في موسكو في 6 يونيه 1799 من أسرة ثرية أرستقراطية إلى وفاته مقتولاً في مبارزة ليدافع عن شرف زوجته في فبراير 1837.

وكان والده يحب الأدب والشعر ويجيد اللغة الفرنسية ويقرض بها الشعر أحياناً. وفي منزله كان يفد الأدباء والشعراء. وفي هذا المجتمع الراقي تعلّم بوشكين الآداب والشعر في فترة مبكرة من حياته **من معلمته الفرنسية**. وفي سن الثامنة كان يقرض الشعر!! وفي مكتبة والده الحافلة اطّلع على الآداب الأوربية واليونانية، وتعلم أيضاً الإنجليزية وأغرم في فترة ما من حياته القصيرة بشكسبير واللورد بايرون. **ولكنه عاد إلى تأثير مرضعته ومربّيته الروسية أرينا** فاستقى منها لغته الروسية، واستمد منها حكايات الشعب الروسي وأساطيره. وفي أحاديثها كما يقول بوشكين كانت تتردّد لغة الوطن.

والمرأة الثالثة التي كان لها أعظم الأثر هي جدته لأمه ماريا إبراهيم هانيبال. وإبراهيم هانيبال جد بوشكين لأمه. وهو فتى إفريقي من الحبشة أو أريتريا وقيل بل من تشاد وقد اختطف وهو طفل وبيع في اسطمبول. وقد أعجب به السفير الروسي في الآستانة وأرسله إلى بطرس الأكبر (قيصر روسيا) لعلمه بأنه يحب النوابغ والأذكياء. وقد استطاع هذا الفتى الإفريقي أن يجتذب اهتمام بطرس الذي أرسله ليدرس العلوم البحرية وصناعة السفن الحربية في فرنسا، فأجادها وترقّى حتى صار قائداً بحرياً ثم صار أدميرالاً (أي أمير البحر) وحقّق انتصارات للقيصر، فأنعم عليه بلقب نبيل وأدخله إلى الطبقة الأرسقراطية وأعطاه أرضاً. وقد حدثته الجدّة ماريا عن إبراهيم هانيبال، وأنه كان مسلماً ومحتفظاً بدينه سرًّا. وأنه كان يقرأ القرآن ويحافظ عليه في ضيعته. فأثارت الجدّة شغف الطفل بوشكين حتى بحث عن القرآن وقرأ ترجمة فيريفكين للقرآن الكريم في شرخ شبابه، كما درس السيرة وتاريخ الإسلام. وكل ذلك كان من عوامل اهتمامه بالإسلام والقرآن. وقد قال **تشرنايف الناقد الروسي المشهور «إن القرآن قد أذهل بوشكين. واعترف بوشكين بذلك** في إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه قائلاً: **«إن القرآن هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي»**.

وقد تعرّضتُ لسيرة بوشكين إلى وفاته، وذكرت أسماء معظم مؤلفاته وأشعاره.

وفي **الفصل الثالث** استعرضت بتفصيل كاف: **التأثيرات الإسلامية والعربية في إنتاج بوشكين**، وما ذكره الأدباء والنقاد الروس في ذلك الصدد وقد أرجعوا اهتمام بوشكين بالقرآن والإسلام إلى الأسباب التالية:

(1) **جده إبراهيم هانيبال** الذي كان محافظاً على إسلامه سراً وحكايات جدته ماريا عنه.

(2) **قراءته للقرآن**، ترجمة فيريفكين، وهي تعديل وتحسين للترجمة السابقة التي قام بها بوسنيكوف عن الفرنسية.

وكما يقول الناقد **إستراخوف**: «إن القرآن على ما يبدو قادر على التأثير بقوة على الناس وفي الوقت الحاضر (أي القرن التاسع عشر الميلادي) تصنع روح هذا الكتاب انتصارات كبيرة».

وكما يقول **تشرنايف**: «إن كتاب المسلمين والشرق (أي القرآن) قد أذهل بوشكين، وإنه لمن المدهش أن القرآن هو الذي أعطى بوشكين أول هزّة للانبعاث الديني. ولهذا كان له مغزى كبير في حياته الخاصة. إن ما لفت انتباه بوشكين في القرآن ليست القيم الأخلاقية والتبجيل فحسب، بل التمجيد الشاعري للرحمن وعظمة الله وجبروته. والذي أدهشه في القرآن وأذهله هو مهابة الله وعظمته المتعلقتان بعقيدة الإسلام التوحيدية والتي حاول بوشكين أن يعكسها في قصيدته تلك (أي قبسات من القرآن)».

(3) **أن القرآن كان ثورة ضد الظلم والطغيان وصورة مثلى للعدالة**

وبالتالي يكون القدوة في محاربة طغيان القيصر وزبانيته.

وكما يقول الناقد السوفييتي **براجينسكي**: «إن تأمل بوشكين في القرآن كان فلسفياً، فقد لجأ إليه من أجل الوعي بدروس التاريخ ولخدمة الواقع... وأصبح القرآن مصدراً للتعبير عن الأفكار البطولية، والشجاعة الصلبة، والنضال المنكر للذات في الفترة التي سبقت حركة الديسمبريين (وهي ثورة قامت ضد القيصر في ديسمبر 1825 وقضى عليها القيصر في حينها).

ويقول الناقد **سلومينسكي**: «إن هناك تواز بين الموتيفات المستلهمة عن القرآن وملامح الظروف التاريخية الروسية».

(4) **حياة الرسول محمد ﷺ وكونها المثل الأعلى للأخلاق، وللصمود والجهاد** في سبيل المبدأ. وكان بوشكين معجباً أشد الإعجاب بسيرته ﷺ ويراه المثل الأعلى لكل البشر... وفيه كانت قصيدته الرائعة «النبي» أو «الرسول» كما ترجمها بعضهم.

(5) **ذهابه للقوقاس منفيًا** ومعرفته لأهله عن كثب وإعجابه بدينهم الإسلام وبأخلاقهم العالية وبشجاعة رجالهم وطهارة نسائهم.

(6) **دراسته لتاريخ الإسلام ومحبته للعرب** مما جعله ينشد القصائد المتتالية في حبِّ ذلك العربي.

ففي قصيدته من وحي العربي يقول بوشكين للعربي:

لا تخجل مني فنحن أهل
وبداخلنا لهب عاصف
ونعيش حياة واحدة

لقد تآلفنا معاً
تماماً مثل جوزة مزدوجة
أسفل قشرة واحدة

وحبيبته يصبح اسمها ليلى، وفي الحفل التنكري يظهر بالزي العربي. وقال قصيدته التي تُظهر حبَّه لمصر وللعرب:

تحت سماء إفريقيا ولدت
وعشقت الحياة في مصر
لكني هنا مفتون بك
ونسيت وطني وكل كنوز الأرض
ومداركي الرائعة
أهبها لعينيك الزرقاوين
وخصلات شعرك الصفراء المتموجة

ويذكر بوشكين في قصيدته الشعرية الطويلة «نافورة باختشي سراي» قصة الخان جيري الذي كان يحكم القرم. وكيف أنه أحبّ أميرة بولندية أسرها، ولكنها غير آبهة بحبّه بينما زوجته الجورجية زاريما تسعى لاستعادته فتفشل، ويعتريها حزن عميق، **فيستغل ذلك بوشكين ليذكر مآثر الحج ورؤية مكة، ويعبر عن رغبته الدفينة في أن يموت مثل الناسك وهو يشاهد الكعبة المشرفة.**

يقول بوشكين:

تهب السماء للإنسان
عوضاً عن الدموع والبلاء الدائم

فالناسك الناظر إلى مكة سعيد
في سنوات الشيخوخة الحزينة

وهكذا تذهب الدموع والآلام والبلاء الدائم عند النظر في خشوع إلى مكة المكرمة والكعبة المشرفة.

ثم يقول بوشكين:

كم هي جذابة الزينة المبهمة
لليالي الشرق الفاخرة
كيف تنساب الساعات
أمام عُشّاق الرسول

وهنا نجد أن بوشكين قد انتقل من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وها هو بوشكين في الروضة الشريفة ينظر إلى قبر الرسول محمد ﷺ بكل الحب والشوق، وتمضي الساعات دون أن يشعر لأنه متدلّه بحبِّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

كيف تنساب الساعات
أمام عشاق الرسول

لقد تحوّل بوشكين من معجب بالقرآن والرسول محمد ﷺ إلى محبٍّ عاشقٍ لمحمد ﷺ. وهي درجة تفوق درجة الدخول في الإسلام، بل وتفوق درجة الإيمان بهذا القرآن العظيم ونبيه الكريم. إنها درجة أعلى وأرقى... إنها درجة المحبّة.

وهكذا نجد بوشكين في قصيدة من قصائده يقول:

صلِّ للخالق فهو القادر
فهو يحكم الريح في يوم قائظ
ويرسل السحب إلى السماء
ويهب الأرض ظل الأشجار
إنه الرحيم قد كشف لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن الأعين

لله درك يا بوشكين، فلتسقط الغشاوة عن الأعين ولننساب نحو نور القرآن وألقه، ولندخل في محبة الله ومحبة رسوله لدرجة العشق. كيف تنساب الساعات أمام عشاق الرسول.

إنها دعوة مليئة بالحبّ والإيمان، وعلينا أن ننشرها في روسيا وفي آفاق الأرض بكافة اللغات.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأخ الحبيب الشاعر الملهم ابن الشاعر المبدع المهندس الدكتور شهاب محمد عبد غانم على تكرمه بترجمة قصيدة (النبي) بعد أن جاءت السحبة التجريبية للكتاب وهو ماثل للطبع، وسيرى القارئ الكريم الفرق بين الترجمات لهذه القصيدة المشهورة لبوشكين وترجمة الدكتور شهاب لها. كما أشكر الناشر دار كنوز المعرفة لاهتمامها بالكتاب وإخراجه بصورة مشرفة.

محمد علي البار

جدة 4 مايو 2009

الفصل الأول

الإسلام في روسيا

الإسلام في القوقاس (القوقاز = القفقاس) Caucasia:

لقد دخل الإسلام إلى القوقاس (وهي اليوم مقسمة إلى القوقاس الشمالية، وتتبع روسيا والقوقاس الجنوبية، وبها ثلاث جمهوريات مستقلّة هي أذربيجان وجورجيا وأرمينية) في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. وقد أرسل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قائده عياض بن غُنم سنة 19هـ/ 639م لفتح مناطق في أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا)... واشتهر حبيب بن مسلمة بفتوحاته الباهرة وبانتصاراته الرائعة على الروم (الدولة البيزنطية التي كانت تحكم هذه المناطق).

أما إقليم أذربيجان فهو مقسَّم اليوم بين إيران وجمهورية أذربيجان (التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي حتى عام 1991) ويفصل بينهما نهر أراكس (الرّس). وقد تم فتح أذربيجان الإيرانية على يد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، صاحب سرّ

رسول الله ﷺ، سنة 18هـ/ 638م. ثم ولّى عمر رضي الله عنه أمر أذربيجان إلى عُتبة بن فرقد السُلمي فواصل فتوحاته حتى وصل إلى إقليم أرّان وهو المعروف حالياً بجمهورية أذربيجان.

ولم يأت عام 24هـ/ 644م إلا وقد خضعت مناطق واسعة من القوقاس للحكم الإسلامي.

وقد شهدت هذه المناطق انتفاضات ضد الحكم الإسلامي في فترات متقطّعة، ولكنها منذ العهد الأموي خضعت للحكم الإسلامي، وافتتح الأمير الأموي محمد بن مروان أبخازيا (شبه مستقلة واعترفت بها روسيا، في جمهورية جورجيا، وتطل على البحر الأسود)، ثم قام مسلمة بن عبد الملك بن مروان بفتوحات واسعة في بلاد الكرج (جورجيا) وأرمينية. وكانت سياسة المسلمين المتسامحة مع السكان النصارى هي الباعث لوقوف الأسر النصرانية الجورجية (الكرجية) والأرمنية مع المسلمين ضد الدولة البيزنطية... وأصبحت تفليس (تبليسي Tiblisi) عاصمة جورجيا، مدينة إسلامية وأخرجت العديد من العلماء، ولكنها عندما ضعفت الدولة الإسلامية عاد إليها النصارى المتعصّبون وأخرجوا منها المسلمين.

وكانت هناك حكومة اللاّن التي كانت تحكم قبائل القوشحة في المنطقة المعروفة حالياً باسم أوسيتيا الجنوبية، وأوسيتيا الشمالية (الأولى تابعة لجورجيا حالياً والثانية تابعة

لروسيا، والنزاع على أشدّه (عام 2008) بين روسيا وجورجيا وقد اعترفت روسيا باستقلالها في آخر أغسطس 2008).

أما الداغستان (أرض الجبال) فقد فتحت لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبدأ أهلها في التحوّل إلى الإسلام في عهد الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه. وكانت عاصمتهم دربند (باب الأبواب أو الباب) مدينة تاريخية. وفي الداغستان كثير من القبائل العربية، بل وفيهم مجموعة من السادة الذين ينتسبون إلى سبطي رسول الله ﷺ، سيديّ شباب أهل الجنة، الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وكان أهل الداغستان يتكلمون اللغة العربية بطلاقة. وكانت اللغة العربية هي لغة العلم والدين والدنيا، ثم لما زالت دولة العرب والمسلمين بقيت اللغة العربية لأنها لغة الدين...

وحتى في العهد الشيوعي السوفييتي الذي منع الكتابة باللغة العربية وبالحرف العربي، وحوَّلها أولاً إلى الحرف اللاتيني، ثم بعد ذلك إلى الحرف الروسي الكيرلي، فإن كثيراً من أهل الداغستان حرص على تعلّم اللغة العربية وآدابها.

يقول **رسول حمزاتوف** أشهر شعراء الداغستان في العصور الحديثة، والذي أبدع شعره باللغة الأفارية (الداغستانية)،

وتُرجمت أشعاره إلى الروسية وغيرها من اللغات، يقول في إذاعة موسكو العربية: «السلام عليكم. . . إن العالم العربي يستهويني دائماً. وقد تخصَّص أبي في الدراسات العربية، وكان ينظم الشعر بالعربية. ويعرف أهل بلدي، داغستان، الثقافة العربية جيداً. . . وأنا أحبُّ شعر امرىء القيس، وحكايات «ألف ليلة وليلة»، و«كليلة ودمنة». ويحدّد الدين الإسلامي نمط حياة شعوب «أفغانستان».

وقد كانت الداغستان والشيشان وأنجوشيا هي الأرض التي انطلقت منها المقاومة الإسلامية ضد الغزو الروسي القيصري في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

وكان أول المجاهدين الثائرين الشيخ منصور أشرمة وهو أول الأئمة المريدين من الطريقة النقشبندية الذين نادوا بالجهاد ضد الغزو الروسي القيصري الكافر، واستمر في جهاده منذ عام 1785 حتى عام 1791 عندما استشهد. ثم ظهر القاضي الملا الغازي محمد الكمراوي الذي نادى الأمراء المحليين، وطالبهم بتطبيق الشريعة الإسلامية عام 1826، ثم بدأ الجهاد ضد الروس حتى استشهد عام 1832. ثم حمل الراية تلميذه الأمير حمزة بك الخنزاجي الذي اغتيل عام 1834. ثم تولى الشيخ محمد شامل الكمراوي الجهاد الأسطوري حتى عام 1859. وقد أُعجب به أعداؤه من الروس أنفسهم. وأظهر بطولات خارقة،

ونظَّم البلاد، ونشر الأمن، وطبّق الشريعة الإسلامية، وكان سلاحه مما يغنمه من الروس أنفسهم. وقد كان أعجوبة في الجهاد والصبر، وحسن معاملة الأسرى حتى أنه لما استسلم عام 1859 أكرمه قيصر روسيا وأحسن معاملته. وتغنَّت ببطولاته أوربا بأكملها. وفي بداية العهد الشيوعي ظهرت كتابات تمدحه وتمجّده ابتداء من ماركس وأنجلز وانتهاء بمئات الكتّاب، حتى دخلت ثورته المناهج الدراسية. ولكن ستالين عام 1949 قرَّر مهاجمة ثورة الشيخ شامل، واعتبرها حركة رجعية ظلامية عميلة للأمبريالية البريطانية، بعد أن كانت الدولة الروسية تمجّدها وتعتبرها ثورة ضد الظلم والإقطاع والحكم القيصري الاستبدادي. ويرجع السبب في ذلك إلى ثورات أهل الشيشان واقتدائهم بالشيخ شامل واعتباره مثلهم الأعلى.

وكان شامل وحركة المريدين يمثل حركة إسلامية جهادية، لغتهم العربية الفصحى، حتى أن الشيخ شامل أمر تلميذه الشيخ محمد طاهر القراخي أن يدوّن مجريات الأحداث والجهاد، فكتبها الشيخ محمد طاهر بلغة عربية فصيحة، وضمَّنها قصائد نظم يصف فيها المعارك. وعنوان كتابه «بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية». مرقوم بالآلة الكاتبة. وعندي صورة من الأصل.

ولم يتوقف الجهاد في القوقاس بعد استسلام الشيخ شامل

عام 1859، بل قامت حركات جهادية متعدّدة، واستمرَّ الجهاد متقطّعاً إلى الحرب الشيشانية الروسية في بداية القرن الواحد والعشرين.

وقد كان القوقاس مسرحاً لمعارك كثيرة بين الروس وأهل القوقاس الشجعان الأشداء. وقد أرسلت روسيا القيصرية جيوشاً بلغ تعدادها أكثر من ثلاثمائة ألف في وقت واحد، ومن ضمن من أرسلتهم بوشكين شاعر روسيا الأكبر، وليرمنتوف تلميذه وثاني أكبر شعراء روسيا، وتولستوي أحد أعظم أدباء وكتاب روسيا. ولهؤلاء كتابات متعددة حول القوقاس.

الأدباء الروس في القوقاز

وقد وضع بوبوف كتاباً بعنوان «**الأدباء الروس في القوقاز**» ونشر في باكو عام 1949.

وكتب جاد جيف كتاباً بعنوان: «**القوقاز في الأدب الروسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر**، ونُشر أيضاً في باكو عام 1982. كما كتب د. يوسوف كتاباً عن تأثير القوقاز في الأدب الروسي الرومانتيكي في بداية القرن التاسع عشر وكتابه بعنوان «**الرومانتيكية الروسية في بداية القرن التاسع عشر والثقافات القومية**»، ونشر في موسكو عام 1970.

وقد اتجه الأدباء والشعراء الروس إلى الشرق يستلهمون منه أشعارهم وأدبهم.

وكانت القوقاس صاحبة التأثير الأكبر في هذا الإنتاج. وذلك للأسباب التالية:

(1) **نفى القيصر مجموعة من الأدباء إلى القوقاس** لأنهم كانوا يشكّلون معارضة أدبية نقدية لنظام حكمه. ومن هؤلاء بوشكين وليرمنتوف أعظم شعراء روسيا على الإطلاق. وأولهما بوشكين وثانيهما ليرمنتوف، فتأثرا بالقوقاس واختلطا بهذه الشعوب المسلمة. وسمع بوشكين منهم القرآن يُتلى بعد أن قرأه مترجماً، وكان حريصاً على تعلم اللغة العربية، ووُجِدت في أوراقه محاولات للكتابة باللغة العربية وكتابة الأبجدية العربية. وهي موجودة إلى اليوم في متحف بيترسبرج (لينينجراد سابقاً).

(2) **ذهاب مجموعة من الأدباء والكتاب ضمن القوات الروسية الغازية التي حاولت الاستيلاء على القوقاس (القوقاز)** في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر. وامتداد تلك الغزوات إلى القرم والبحر الأسود.

(3) **طبيعة القوقاس الخلابة.**

(4) **سكان القوقاس الشجعان وحياتهم الخالية من لوثات الحضارة.**

وقد قال أجيل جاد جيف: «إذا كان وطن الرومانتيكية الأوروبية الغربية قد أصبح الشرق بخاصة، فإن وطن الرومانتيكية الروسية قد بات الشرق الروسي: القوقاز». كما تنقله عنه د. مكارم الغمري في كتابها الهام «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي».

وقد كان لكتاب جوته: «الديوان الشرقي للكاتب الغربي» صدى واسعاً في روسيا بعد ترجمته إلى الروسية وأثّر تأثيراً كبيراً في عدد من الأدباء الروس. واتجه هؤلاء صوب القرآن ليتعرّفوا عليه. كما أن عدداً منهم درس اللغة العربية واللغة الفارسية، والآداب العربية والفارسية وكان تأثير القرآن واضحاً على عدد كبير من هؤلاء الأدباء والشعراء.

كما أن قصص ألف ليلة وليلة أثَّرت في مخيلة هؤلاء الأدباء الروس كما فعلت في مخيلة الأدباء الأوربيين الغربيين. وتمت ترجمات مختارة من الأدب الجاهلي وخاصة شعر امرىء القيس.

ترجمات القرآن الكريم إلى الروسية

وقد تأثر بوشكين بدراسته للقرآن الكريم. وكانت أول ترجمة للقرآن الكريم قد تمت في عهد بطرس الأكبر الذي يلقبونه بالعظيم. وكان سياسياً بارعاً يريد التوسع في أراضي المسلمين في القوقاس والبحر الأسود وجزيرة القرم. ولذا أمر بتعليم اللغة العربية والفارسية والتركية في المعاهد العليا التي أنشأها في قازان وبطرسبورج، كما شجّع على ترجمة القرآن الكريم. وظهرت أول ترجمة للقرآن باللغة الروسية عام **1716** **على يد المترجم بوسنيكوف** (Bosnikof) الذي نقلها عن الترجمة

الفرنسية والتي قام بها المستشرق الفرنسي دي ريي (De Ryer) عام 1647. وهي ترجمة رديئة تبدو من عنوانها: «القرآن عن محمد أو القانون التركي». وقد تنبّه المستشرق الروسي العملاق كراتشكوفسكي إلى سوء هذه الترجمة المليئة بالأخطاء.

وقد قامت الملكة كاثرين الثانية (1762 ـ 1796) بطبع نسخة عربية من القرآن الكريم بخط جميل، أشرف عليها المُلاّ عثمان إبراهيم. وقد طبعت طبعات متتالية منذ عام 1789 حتى عام 1798 (خمس طبعات)[1]. وفي عام 1802 رفع الحظر على طبع الكتب الإسلامية. وتم طبع 82,300 نسخة من القرآن الكريم في قازان وحدها.

وفي عام 1790 ظهرت ترجمة فيريفكين (Vervekin) التي أشاد بها المستشرق كراتشكوفسكي باعتبارها أفضل ترجمة حتى زمنها. وقد استفاد منها بوشكين، شاعر روسيا الأعظم، وكانت مادة أساسية في مؤلفه العظيم «قبسات من القرآن» رغم أن بها أخطاء كثيرة لأنها مترجمة عن الفرنسية.

ثم ظهرت في القرن التاسع عشر ترجمة ج. سابلوكوف (Sablukov) عام 1878 وهي ترجمة مباشرة عن اللغة العربية. ثم

---

(1) د. مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ـ عالم المعرفة ـ الكويت 1990 (رقم 155) كما تنقله عن كراتشكوفسكي: المؤلفات المختارة ج 5/ 40 ـ 42.

قام المترجم سابلوكوف بإعداد ملحق لهذه الترجمة بعنوان «معلومات عن القرآن» صدر عام 1884.

وأصدر ب. بوجدانيفيتش (Bogdanovich) كتاباً بعنوان «محمد والقرآن» وذلك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

وفي عام 1864 صدرت ترجمة للقرآن الكريم قام بها المترجم نيكولاييف Nikolave وهي أيضاً ليست ترجمة مباشرة عن اللغة العربية، بل عن اللغة الفرنسية.

وقد قامت الحكومة الروسية عام 1905، بعد إعطاء الحريات الدينية **الكاملة بطبع مصحف سمرقند الشهير المدوّن بالخط الكوفي في القرن الهجري الأول، والمشهور بمصحف عثمان رضي الله عنه**. وقد حظيت هذه الطبعة المصوّرة بإقبال شديد من كافة المسلمين في روسيا والعالم الإسلامي.

وفي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كانت في روسيا مطابع تستعمل الحرف العربي في ثمان مدن روسية.

ويقول الدكتور عبد الرحيم العطاوي في كتابه «الاستشراق الروسي»[1]: أن ترجمة نيكولاييف عام 1864 هي آخر ترجمة للقرآن عن اللغات الأوربية. وبدأ المستشرقون الروس بعد ذلك يترجمون مباشرة عن اللغة العربية.

(1) د. عبد الرحيم العطاوي: الاستشراق الروسي، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت 2002 ص 278.

ففي عام 1871 أنجز الجنرال بوجوسلافسكي (D.N. Boguslavskiy) ترجمته. وكان قد نال تحصيلاً جيداً في اللغة العربية بجامعة بطرسبورج وعمل كمترجم للسفارة الروسية في الآستانة. ولكنه لم ينشر عمله ذاك لأنه عندما عاد إلى موسكو وجد ترجمة أخرى قد صدرت للمترجم سابلوكوف (Sablukov)، وتميزت طبعة سابلوكوف بوضع النص العربي في مقابل الترجمة الروسية.

وبقيت ترجمة سابلوكوف الترجمة الوحيدة المتداولة على مدى 80 عاماً تقريباً.

وفي مطلع القرن العشرين قام **العالم الأوكراني كريمسكي** (A. Krymskiy) بإصدار ترجمة **لعدد من سور القرآن مع شرحها ضمن سلسلة بعنوان «محاضرات حول القرآن». ثم قام المستشرق والمستعرب الكبير كراتشكوفسكي بإنجاز ترجمته لمعاني القرآن الكريم.**

وقد توفي كراتشكوفسكي سنة 1951 قبل أن تظهر هذه الترجمة التي تعتبر أفضل وأجود الترجمات الروسية. وقد ظهرت هذه الترجمة عام 1963.

وظهرت ترجمة حديثة على مراحل **آخرها عام 1997** للكاتبة الروسية المسلمة **إيمان فاليريا بوروخوفا** بمساعدة

وتحقيق زوجها السوري الدكتور محمد سعيد الرشد. . . ورغم ادعاء المترجمة أن ترجمتها هي أفضل الترجمات إلا أن النقاد من أمثال علاء الدين فرحات يرى أنها ارتكبت العديد من الأخطاء بسبب جهلها باللغة العربية واعتمادها على ترجمات أجنبية أخرى. كما يرى الدكتور عبد الرحيم العطاوي[1] أنها تنطلق بالأساس من عمل كراتشكوفسكي مع بعض المستجدّات، وكثير من التحايل والتصنع[2].

وعلى العموم تعتبر **ترجمة المستعرب الكبير كراتشكوفسكي من أفضل الترجمات** إلى اللغة الروسية، إن لم تكن أفضلها. وقد أشار الدكتور عبد الرحيم العطاوي إلى ترجمة عثمانوف وترجمة الدكتور توفيق إبراهيم الأستاذ بجامعة موسكو والتي اعتبرها أفضل الترجمات حتى اليوم.

قبسات من القرآن لبوشكين

وقد نالت قصائد بوشكين التسع «**قبسات من القرآن**» أو «محاكاة للقرآن» ـ كما ترجمها بعضهم ـ بعض الاهتمام المبتور من الدارسين الروس، منهم **كاشتاليفا** التي نشرت أبحاثاً متعدّدة

(1) د. عبد الرحيم العطاوي: الاستشراق الروسي، المصدر السابق ص 281 ـ 283.

(2) المرجع نفسه.

عن القرآن الكريم (من سنة 1926 حتى عام 1928). وفي عام 1930 كتبت مقالة بعنوان «قصائد بوشكين قبسات من القرآن ومصدرها الأول» وقالت إن الشاعر العظيم بوشكين حاول إبراز الجانب الديني والفلسفي للقرآن. وانتقدت بشدّة ما زعمه بعض التافهين من أن بوشكين أراد محاكاة القرآن والتهكم به. وقالت: «ولا أدلّ على اهتمام بوشكين الحقيقي بالقرآن من أنه كتب رسالة إلى أحد أصدقائه يقول: «إن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي».

وقال الناقد الأدبي **بيلينسكي**، الذي تخصص في أعمال بوشكين، عن قصائده «قبسات من القرآن» «**إنها الماسة البراقة في تاج بوشكين الشعري**. وإن هذه القصائد تعكس روح الإسلام وجمالية الشعر العربي»[1]، ولكنه لم يقدم أي دراسة في هذا الموضوع الهام.

وقال الناقد **تشرنايف** «إن بوشكين نقل الجانب الفلسفي الديني للقرآن، وإن كتاب المسلمين والشرق (القرآن) قد أذهل بوشكين. وإنه لمن المدهش أن القرآن هو الذي أعطى بوشكين

---

(1) بيلينسكي: المؤلفات الكاملة، أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو 1955 مج 7/ 104، نقلاً عن مالك صقور «بوشكين والقرآن»، دار الحارث، دمشق 2000 ص 150.

أول هزّة للانبعاث الديني، ولهذا كان له مغزى كبير في حياته الخاصة»[1].

ويقول **تشرنايف**: «إن ما لفت انتباه بوشكين في القرآن، ليس القيم الأخلاقية والتبجيل فحسب، بل التمجيد الشاعري للرحمن وعظمة الله وجبروته. وإن الذي أدهشه في القرآن وأذهله مهابة الله وعظمته المتعلقتان بعقيدة الإسلام التوحيدية، والتي حاول بوشكين أن يعكسها في قصيدته تلك»[2].

ويقول **ستراخوف**: «إن بوشكين لديه إحساس صادق بالنص الأصلي (أي القرآن) وفي ذلك الوقت كان على استعداد أن يحاكيه تماماً»[3].

والمقصود بالمحاكاة ها هنا هو الاقتباس من معانيه، لا معارضته. ويرى أن طريقة القَسَم في القرآن والتي حاكاها بوشكين تحمل سرًّا، وتحتوي على قوة عجيبة مع التناغم الهارموني، كما أنها تحتوي على انسيابية شعرية مذهلة وموسيقى عجائبية.

(1) تشرنايف: النبي ومحاكاة القرآن لبوشكين، موسكو 1898 ص 51، نقلاً عن مالك صقور، المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) ستراخوف: ملاحظات عن بوشكين وشعراء آخرين، موسكو 1888 ص 48، كما ينقله عنه مالك صقور: بوشكين والقرآن ص 151.

والخلاصة، أن تأثيرات القرآن على بوشكين كانت عظيمة جداً، وسنتحدث عنها بشيء من التفصيل عند الحديث عن أعماله الأدبية وكيفية تأثره بالقرآن الكريم، وبسيرة الرسول محمد ﷺ، وبالأحاديث النبوية الشريفة.

ويذكر مالك صقور في كتابه «بوشكين والقرآن» أن «جوكوفسكي» في كتابه «بوشكين والرومانتيكية الروسية» قال: إن شاعراً روسياً قديماً (أي قبل بوشكين) قال قصيدة على غرار قصائد بوشكين وفيها يقول الشاعر (الذي لم يسمِّه جوكوفسكي)[1]:

أقسم بمكة المقدسة
أقسم بالفَرَسِ والزيتونة
أقسم بالشفرة المصقولة
أقسم بالسيف المجرّد
أقسم بحوريات الجنّة
والنبي محمد
إما أن تكوني لي
وإما لن تكوني لأحد

(1) جوكوفسكي «بوشكين والرومانتيكية الروسية» ص 48، نقلاً عن مالك صقور «بوشكين والقرآن» ص 43 ـ والترجمة هي لمالك صقور.

وقد استدلَّ بذلك جوكوفسكي على استلهام بعض الشعراء الروس لموضوعاتهم وشعرهم من الشعر الشرقي وبالذات الثقافة الإسلامية.

وهذه القصيدة بالذات أشبه ما تكون بشعر بوشكين وطريقته في القسم وخاصة في مجموعته «قبسات من القرآن»... وأنا لا أعرف الروسية، ولست أدري إن كانت هذه القصيدة هي لشاعر قديم لم يسمِّه جوكوفسكي، أم إنها من إنتاج بوشكين، فروح بوشكين الإسلامية فيها واضحة، وطريقته في القسم تشبه قصائده الأخرى.

ومهما كان الأمر فالقسم بغير الله لا يصح، وإن كان المسلمون في كثير من الأصقاع يفعلون ذلك. وليس بمستغرب إذن على روسي متأثر بالآداب الشرقية أن ينقل هذه الانطباعات ويقلّدها.

الإسلام على ضفاف الفولجا
منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)

لقد دخل الإسلام إلى ضفاف الفولجا وإلى وطن الروس الأول في فترة مبكرة جداً وذلك بواسطة التجار والدعاة إلى الله.

وتبرز العلاقات التجارية كعلامة بارزة بين التجار

المسلمين وسكان نهر الفولجا (نهر إتل كما كان المسلمون يسمونه). وقد أسلم بلغار الفولجا منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وقد كتب بلغار الفولجا المسلمون خطاباً إلى الخليفة العباسي المقتدر (جعفر بن المعتضد) سنة 309هـ/ 921م رسالة يخبرونه فيها بحاجتهم إلى مرشدين ومعلمين دينيين، وإلى إقامة استحكامات عسكرية وحصون تحميهم من هجمات دولة الخزر القوية، والتي فرضت عليهم الجزية، وإلى أن يرسل لهم أموالاً ومهندسين لبناء هذه الاستحكامات. وقد أرسل هذه الرسالة الملك ألمش بن يلطوار مع السفير نذير الخرمي. وردّ عليها الخليفة بإرسال وفد يرأسه ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد) ومعه سوسن الرّسي (من منطقة نهر أراكس أو الرسّ الذي يفصل بين أذربيجان الإيرانية وأذربيجان السوفييتية السابقة)[1] وتكين التركي وبارس الصقلبي (الصقالبة هم العنصر السلافي) ورسول الصقالبة المسلم مع بعض المهندسين والأطباء. وقد سجّل ابن فضلان رحلته تلك، ونالت هذه الرحلة اهتماماً من المستشرقين الروس، وترجمت إلى الروسية والألمانية. وقام الدكتور سامي الدهان بنشرها

(1) سوسن الرسّي: نسبة إلى نهر أراكس أو الرس وليس إلى منطقة الرسّ في نجد (القصيم) التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.

وتحقيقها، ونشرها مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1959، ثم أعيد نشرها مع إضافات وتعليقات آخرها سنة 2003 بهوامش وتقديم شاكر لعيبي ونشرتها المؤسسة العربية، بيروت.

وتوضح هذه الرحلة أن الإسلام قد تجذّر لدى بلغار الفولجا (نهر إتل).

وتقول الدكتورة مكارم الغمري[1]: «كان القرن التاسع الميلادي هو بداية تاريخ هذه العلاقات. وكانت مواد التجارة آنذاك هي الفراء والعسل والحرير الذي كان يباع للشرق العربي مقابل عملات فضية عربية وجدت آثارها في أنحاء متفرقة من روسيا. ويلاحظ المؤرخ الكبير بارتولد (Bartold) في هذا الصدد أن وجود العملات العربية الفضيّة في روسيا كان يعني التفوق الحضاري العربي آنذاك على دولة روسيا القديمة...

«وقد كانت حركة التجارة القديمة بين روسيا والشرق العربي ـ وحسب إشارة كراتشكوفسكي ـ هي إحدى المنافذ التي عبرت من خلالها كلمات عربية إلى اللغة الروسية، والتي كان في عدادها بعض مصطلحات الطب العربي التي انتقلت بشكل خاص ـ من خلال الحكيم المعروف آنذاك في روسيا بطرس سريانين الذي كان يمثل مدرسة الطب العربي السورية التي

(1) مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ص 33.

أكسبت لنفسها شهرة عالمية، وكانت وسيلتها اللغة العربية»[1].

إسلام فلادمير ثم ردته

وتقول مكارم الغمري[2]: **أن ثمة مخطوطة روسية ترجع إلى العام 1113 وهي من أقدم الأدبيات الروسية المكتوبة «قصة السنوات العابرة» وفيها أن الأمير فلادمير Vladmir (978 ـ 1015) حاكم روسيا (وكانت أمارة صغيرة آنذاك مقرها كييف) اعتنق الإسلام ثم ارتدَّ عنه إلى المسيحية الأرثوذكسية. ويقول المؤرخ الأدبي الكبير ليخاتشوف (Likhacev) إن الحاكم فلادمير اعتنق الأرثوذكسية اليونانية عندما أراد أن يتزوج ابنة الأمبراطور البيزنطي الذي وافق على ذلك الزواج بشرط واحد هو تعميد فلادمير»[3].**

رحلة ابن فضلان

وقد أوضح لنا ابن فضلان في رحلته أن ملك البلغار يلمش بن يلطوار كان على علم واسع بالإسلام وفرائضه وسننه. وكان مؤذن الملك عندما يقيم الصلاة يثنيّ، فأخبره ابن فضلان

(1) كراتشكوفسكي: المؤلفات المختارة، موسكو ـ لينتجراد 1958 ج 5/ 14، نقلاً عن مكارم الغمري، المصدر السابق ص 34.

(2) مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ص 31.

(3) ليخاتشوف «الإرث العظيم» موسكو 1975 ص 58، نقلاً عن مكارم الغمري.

أن الخليفة المقتدر يقولها مرة مرة (حي على الصلاة ـ حي على الفلاح ـ قد قامت الصلاة) فوافقه الملك يلمش، ولما اعتذر ابن فضلان عن تسليم الأموال التي أمر الخليفة بأن تؤخذ من خراج خوارزم وأنها لم تدفع له بسبب مماطلة وكيل الوزير ابن الفرات، غضب الملك يلمش، وطالب ابن فضلان بدفع الأموال. ثم أمر الملك مؤذنه أن يثنِّي في الإقامة كما كان يفعل، فلما اعترض ابن فضلان قال الملك لابن فضلان: «ما تقول في مؤذنين أفرد أحدهما بالصلاة، وثنّى الآخر، ثم صلّى كل واحد منهما بقوم: أتجوز الصلاة أم لا؟ قال ابن فضلان: الصلاة جائزة. فقال الملك: باختلاف أم بإجماع؟ قال ابن فضلان: بإجماع. قال الملك: فما تقول في رجل دفع إلى قوم محاصرين مالاً لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين فخانوه؟ فقلت (أي ابن فضلان) هذا لا يجوز، وهؤلاء قوم سوء. قال: باختلاف أم بإجماع؟ قلت: بإجماع. فقال الملك: تعلم أن الخليفة ـ أطال الله بقاءه ـ لو بعث إليّ جيشاً كان يقدر عليّ؟ قلت: لا. قال الملك: فأمير خراسان؟ قلت: لا. قال: أليس لبعد المسافة وكثرة ما بيننا من قبائل الكفار؟ قلت: بلى. قال الملك: فوالله إنّي لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإنّي لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أنّي أخاف أن يبلغه عنّي شيء يكرهه فيدعو عليّ فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه، وترونه في

كل وقت، ختنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إليّ، إلى قوم ضعفى، وختنتم المسلمين، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه. قال ابن فضلان: فألجمنا وما حرنا له جواباً وانصرفنا من عنده»[1].

وهذه المحاورة تدلّ دلالة واضحة على عمق فهم هذا الملك للإسلام، ومعرفته لأحكامه وتفريقه بين السُنّة والواجب. وأن الاختلافات البسيطة لا تؤثر (مثل الإفراد أو التثنية في إقامة الصلاة بإجماع المسلمين)، ومعرفته بالخلاف وأنواعه، وعمق فهمه للدين، وأهمية إغاثة المسلمين وإنقاذهم، وبناء الحصون والاستحكامات العسكرية لحمايتهم من عدو غادر شديد البطش.

وقد انتشر الإسلام في ضفاف نهر الفولجا، وقامت دولة إسلامية قوية امتدت من مدينة البلغار إلى استراخان على مصب نهر الفولجا. ثم جاء التتار (المغول) واجتاحوا إمارة روسيا كييف سنة 1240. وتحول الأورد الذهبي إلى الإسلام بإسلام بركة خان بن جوجي ابن جنكيز خان. وقد حكم الأورد الذهبي

---

(1) انظر هذه القصة كاملة في رحلة ابن فضلان تحقيق الدكتور الدهان. وانظر كتابي «قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا» دار كنوز المعرفة ـ جدة للتعليقات على هذه القصة.

كل الأراضي الممتدة من قازاخستان حتى بولندا. (حكم بركة خان 654 ـ 665هـ/ 1256 ـ 1267م).

وقامت مدن عظيمة على ضفاف نهر الفولجا، منها قازان وسراي ومدينة البلغار ومدينة بيلار ومدينة أصلي ومدينة إبراهيم ومدينة كاشان ومدينة جوكاتو. وقد اندثرت كثير من هذه المدن وقامت غيرها، من أشهرها مدينة سمارا (أي سرَّ من رأى: سامرّاء وأهل أوربا يطلقون على مدينة سامرّاء في العراق اسم سمارا إلى اليوم) ومدينة قازان ومدينة سراي.

وانتشر الإسلام إلى بشكيريا وشبه جزيرة القرم. وكانت موسكو خاضعة للمسلمين في سراي ثم في قازان. وأصبح نهر الفولجا بكامله تحت الحكم الإسلامي الذي امتد إلى عدة قرون. وانتهى هذا الحكم بظهور إيفان الرابع (الرهيب) الذي حطم هذه الممالك بسبب اختلافاتهم (1552 ـ 1580)[1].

ابن بطوطة يصف مملكة البلغار والتتار

وقد ترك لنا الرحالة المغربي **ابن بطوطة**[2] وصفاً كاملاً

(1) انظر تفاصيل الحكم الإسلامي في روسيا في كتابي: «قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا» الفصل الرابع إلى الثامن.

(2) محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (703 ـ 779هـ/ 1304 ـ 1377) المشهور بابن بطوطة. بدأ رحلته عام 725هـ واستمر حتى عام 754 ودوّن تلك =

لمملكة البلغار والتي أصبح يحكمها أحد أحفاد جنكيز خان السلطان العظيم الشأن محمد أوزبك خان الذي آل إليه أمرها سنة 713هـ/ 1312م وقد حكم نهر الفولجا وامتد سلطانه إلى بولندا، وإلى القرم، وإلى مناطق البشكير حتى وصل حكمه إلى قازاخستان حيث يبدأ حكم ابن عمه السلطان العادل الناسك طرمشرين حاكم بلاد ما وراء النهر (أوزبكستان وطادجكستان وتركمنستان وقرغيزيا وقازاقستان حالياً).

وكانت عاصمة حكم السلطان محمد أوزبك مدينة السُّرا. وقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة عظيمة واسعة الأرجاء: «ومدينة السُّرا من أحسن المدن متناهية في الكبر» كما وصف الكفا والقرم ومدنها.

انقسام الدولة واستيلاء الروس عليها

وقد انقسمت هذه الدولة إلى مجموعة من الدويلات (الخانيات) في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وهي كالتالي:

(1) **خانية استراخان أو الحاج طرخان** وتقع مدينة استراخان على مصب نهر الفولجا في بحر الخزر (بحر قزوين). وقد تولى

= الرحلة، وأملاها على الكاتب محمد بن أحمد بن جزي كاتب السلطان أبو عنان فارس المريني.

أمرها كوجوس خان سنة 842هـ/ 1438 وبقيت في سلالته حتى عام 965هـ/ 1557م عندما احتلها إيفان الرابع (إيفان الرهيب).

(2) **خانية قازان**: وتقع في المجرى الأوسط لنهر الفولجا وتكونت سنة 842هـ/ 1438 وقد حكمها ألوغ محمد واستمرت في سلالته حتى عام **960هـ/ 1552م عندما استولى عليها إيفان الرهيب**. وكانت موسكو تدفع لها الجزية حتى عام 1480م وتقيم معها علاقات تجارية وطيدة. ثم ضعفت الدولة ورفض إيفان الثالث دفع الجزية عام 1480 وأعلن نفسه حاكماً وقيصراً لكل الروس.

(3) **خانية القرم (القريم)**: انتقل حاجي كراي ابن أخ ألوغ محمد حاكم قازان إلى القرم واستقلّ بحكمها منذ عام 856هـ/ 1452 واستمرت في سلالته. ولم يستطع إيفان الرهيب أن يحتلها. بل قامت هذه الخانية بالانتقام من الاحتلال الروسي لقازان واستراخان ووصلت جيوش الخان كريم كراي إلى موسكو ذاتها ومنها إلى بولندا... وقد خلّد الشاعر بوشكين تلك القصّة بشعره (قصة شعرية) أسماها نافورة «باختشي سراي» أو نافورة الدموع. وبغجه سراي (باختشي سراي) هي عاصمة القرم التي بناها العثمانيون بعد أن طلب منهم الخان أن يدخلوها ليحموه من الروس.

وقد استمرت هذه الخانية رغم الهجوم المتكرر الذي قام

به بطرس الأكبر. ولكنها سقطت في يد الأمبراطورة كاثرين الثانية سنة 1197هـ/ 1783م بسبب خيانات من القائد التركي للقرم الذي استسلم بعد أن قضى الليلة مع كاثرين نفسها (وهي امرأة جميلة ولعوب، ولها العديد من العشاق). وكانت عقوبته الإعدام عندما عاد إلى تركيا.

ورغم أن كاثرين الثانية وعدت أهل القرم بحكم ذاتي إلا أنها نقضت العهد وطردت مئات الآلاف من سكانها المسلمين وأعطت أراضيهم لعشاقها المفضلين وللمستوطنين الروس.

(4) **خانية قاسموف**: وقد حكم فرع من أبناء ألوغ محمد خانية قاسموف من سنة 856هـ/ 1452 إلى سنة 1092هـ/ 1681 عندما استولى عليها الروس.

وهكذا نرى أن مجرى نهر الفولجا وخاصة المجرى الأوسط والأسفل كان منطقة إسلامية منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) عندما استولى إيفان الرهيب على مناطق المسلمين. ثم توسعت الدولة الروسية حتى وصلت إلى القرم في عهد كاثرين الثانية. كما أن قوات بطرس الأكبر وصلت إلى القوقاس وإلى الشواطىء الشمالية للبحر الأسود، ولكنها صُدَّت. واحتاج القوقاس إلى قرن من الزمان للاستيلاء عليه في حروب مستمرة

منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي إلى أواخر القرن التاسع عشر. والواقع أن الثورات لم تهدأ في القوقاس وخاصة في الشيشان إلى بداية القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد[1].

(1) انظر كتابي: «قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا».

الفصل الثاني

ألكسندر سيرجيفتش بوشكين

ألكسندر سيرجيفتش بوشكين

مولده وصفته

ولد في موسكو في 6 يونيه (حزيران) 1799 وتوفي مقتولاً بعد مبارزة غير متكافئة مع ضابط في القنصلية الفرنسية في 10 فبراير 1837.

وتبدو الملامح الإفريقية المتمثلة في الشعر الأسود الفاحم الجعد والشفتين المكتنزتين اللتين ورثهما عن جده لأمه إبراهيم هانيبال الحبشي (الأرتيري) الأصل الذي اختطف وعمره ثمان سنوات. ثم اشتراه السفير الروسي في الآستانة (اسطمبول) لمّا لاحظ عليه الذكاء والفطنة، وأهداه للقيصر بطرس الأكبر، الذي اعتنى به وأرسله لفرنسا ليتعلم العلوم الحربية البحرية فترقى حتى أصبح أدميرالاً وضابطاً كبيراً في الجيش الروسي. وأدخله القيصر في طبقة النبلاء لخدماته العديدة للوطن والقيصر.

Aleksandr Sergeyevich Pushkin

ألكسندر بوشكين Alexander Pushkin
وقيمته في الأدب والشعر الروسي

التعريف ببوشكين: يعتبر ألكسندر بوشكين أعظم شعراء روسيا على الإطلاق، ومفجر الطاقات الإبداعية في الأدب الروسي.

ويعترف جميع الأدباء والنقاد بأن (بوشكين) هو الذي أسس الأدب الروسي الجديد عن طريق تحريره من التبعية للآداب الأجنبية على الرغم من تأثره بها كلها، ورغم هذا فقد

كان يعرف كيف يتخلص من التأثر بالآخرين لكي يبدع طريقه أو أدبه الخاص.

* **جوجول:** (كاتب روسي شهير، من أشهر أعماله (المعطف ـ المفتش ـ الأرواح الميتة)، كان معاصراً وصديقاً لبوشكين وهو رائد كتابة القصة في روسيا فمن معطفه خرجت كل الأعمال القصصية الروسية. يقول جوجول: «عند ذكر اسم (بوشكين) تومض على الفور الفكرة بخصوص شاعر روسيا القومي. بالفعل، لا يمكن أن يُطلق على أي شاعر آخر لقب شاعر قومي. فهذا من حقه هو بالتأكيد. لقد انعكس منه، كما في المعجم، كل غنى وقوة، ومرونة اللغة الروسية. هو، (أي بوشكين)، أكثر من الجميع، جعل حدود اللغة أوسع، وفضاءها أرحب. إن (بوشكين) ظاهرة استثنائية، بل ربما الوحيدة للروح الوطنية الروسية. إن الطبيعة الروسية، والروح الروسية، واللغة الروسية، والطباع الروسية ـ قد انعكست فيه بكل نقائها وبكل جمالها البهي».

* **ي. تورجينيف:** (كاتب قصة قصيرة من رعيل الكتاب الروس الأوائل)، يقول:

«إن (بوشكين) قد أعطى اللغة الروسية صياغة نهائية بحيث إنه ـ من حيث الغنى والقوة وبناء وجمال الشكل ـ حتى علماء اللغة وآدابها الأجانب قد اعترفوا بها في المرتبة الأولى بعد

اليونانية القديمة. لقد مارس (بوشكين) تأثيراً هائلاً من خلال الصور النموذجية والأصوات الخالدة على جميع اتجاهات الحياة الروسية».

* **ن. تشيرنيشيفسكي**: (ناقد أدبي ذائع الصيت في الأوساط الأدبية الروسية في القرن التاسع عشر)، يقول:

«إن أهمية (بوشكين) عظيمة للغاية. فمن خلاله فاضت الثقافة الأدبية لتشمل عشرات الآلاف من الناس. بينما من قبله كان الاهتمام بالأدب يقتصر على القليلين... فهو أول من رفع شأن الأدب إلى مرتبة الكرامة الوطنية، في حين أن الأدب قبله كان، حسب التعبير الناجح لإحدى المجلات التراثية، «مجرد قضاء الوقت بشكل ممتع ومفيد» بالنسبة لحلقة ضيّقة من الهواة.

إن (بوشكين) هو أول شاعر تربَّع في قلوب وعيون الجمهور الروسي على ذلك العرش الرفيع الذي يجب أن يشغله الكاتب العظيم في بلاده. لأن أساس تطور الأدب الروسي كان قد حُدِّد وسوف يرسم في المستقبل من قبل (بوشكين).

* **(دیستویفسكي)**: (مؤلف: الجريمة والعقاب والأخوة كرامازوف في خطابه الشهير الذي ألقاه بمناسبة الاحتفال بذكرى (بوشكين)، يقول: «لقد كان (بوشكين) كاتباً كونياً لأنه كان روسياً حقيقياً، وكان روسيًّا حقيقياً لأنه كان كاتباً كونياً،

فالكونية ليست ضد الخصوصية على عكس ما يتوهم ضيقو العقول وإنما هي توسيع لها أو تكميل وتعميق، فـ(بوشكين) لم يستطع أن يتوصل إلى الكونية إلا بعد أن هضم تراث الآداب الأخرى كالأدب الفرنسي والإنجليزي والعربي وصهرها كلها في بوتقة الأدب الروسي والشخصية الروسية).

«والواقع أن (بوشكين) كان حالة فريدة في نوعها في تاريخ الآداب الكونية، فبإمكاننا أن ندرس الآداب الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية من دون أن نشير إلى كاتب واحد يكون قد أثَّر على من لحقوا به، أما بالنسبة للأدب الروسي فلا نستطيع، فكل من جاء بعد (بوشكين) مدين له بشيء ما».

وقال (**ديستويفسكي**): «إن كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هَدي (بوشكين)، ولم تصنع الجديد من بعده، فكل البدايات كانت منه، أشار بها علينا فضلاً عن أننا صنعنا أقل مما أشار به علينا، ولكن في المقابل فالذي صنع جاء متفوقاً وثرياً وفي عمق ووضوح، وكان بفضله، وبدرجة كانت ستجعل (بوشكين) يعترف به».

وكتب بيلينسكي أحد نقاد الأدب الروسي المشهورين: «كان ثمة شعراء قبل بوشكين، إنما لم يكن هناك شاعر فنان واحد. كان بوشكين الشاعر الروسي الفنان الأول». ولهذا فإن

قصائده المبكّرة مثل روسلان ولودميلا، وقطّاع الطرق، وأسير القفقاس تعتبر فاتحة عصر جديد في الشعر الروسي. إن وهجاً قومياً حاراً كان يتألق في أبيات توتجف في ذكرى بوشكين وهو يقول:

أبداً سيتذكرك قلب روسيا
كما يتذكر الحبّ الأول

«إن أهم ما يلمس عند بوشكين هو الوضوح في بساطته وصفائه الفائقين. كان بعيداً عن التأمل المجرد أو البحث عن الإثارة الشكلية وحدها. إن قصائده لتأخذ مادتها أينما وجدها الشاعر... من أغاني الحوذيين والغجر أو من الحفلات الباذخة... من البحر الجنوبي أو الغابة الشمالية المتدثرة بالثلوج، من زهرة جافة منسية في كتاب... وكفنان حقيقي لم يكن بوشكين ليعوزه اختيار مادة لموضوعه، فأي مادة بالنسبة له مترعة بالشاعرية.

ويقول: «بوشكين شاعر كل الشعوب لكل العصور»، لقد اهتم فقط بالنماذج الإنسانية الخيِّرة من حضارات الشعوب الأخرى، لقد تميز الإنتاج الشعري لـ(بوشكين) «بالإخلاص بشكل مدهش للواقع، سواء تناول وصف الطبيعة الروسية أم الطبائع الإنسانية الروسية، وعلى هذا الأساس فالصورة المعلنة له: شاعر روسي قومي شعبي».

ويتحدث بيلينسكي عن هذه الرواية (يفجيني أو نيجين) قائلاً: «إن روايته هذه لهي ملحمة الحياة الواقعية المعاصرة، ليس بشعر الحياة فحسب، إنما بنثرها كله، بالرغم من بنائها الشعري. هنا الربيع المبارك والصيف الدافىء والخريف الممطر الموحل والشتاء القارس، هنا العاصمة والقرية، حياة فتى العاصمة المتأنق ومالكي الأرض، والقرويين المنزوين بأحاديثهم الخاملة... هنا الشاعر الحالم لينسكي (أحد أبطال الرواية) والسكير المبتذل المنافق زارينسكي، أو تجد أمامك وجه امرأة عاشقة فاتنة، أو سحنة خادم الخمارة الثقيلة، وهو يفتح الباب، والمكنسة في يده، وقد صور كل واحد منهم متميّزاً عن الآخرين كما هو في الواقع ولكنه ممتلئاً شاعرية».

ويقول **تولستوي** أديب **روسيا الأعظم** صاحب «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا» النبيل الذي وزع أراضيه وأمواله للفقراء والكادحين، وعاش معهم عيشة الكدح ملتذاً بها. يقول: «إنك لا تحسُّ عند بوشكين بالنظم، رغم ما تمتلكه القصيدة من إيقاع ونغم وقافية... إنك لتحس إنه ليس ممكناً أن تقال بطريقة أخرى... إن هذا الإحساس ليظل يرافقك في تتبع روايته الشعرية الطويلة (يفجيني أو نيجين)، إحساسك وكأنك أمام «عمل شعري خاص» هو «نثر الحياة وشعرها معاً، وقد انصهرا في توهج إبداعي».

ويقول **مكسيم جوركي الأديب** المشهور عنه: «إنه حجر الزاوية في الأدب الروسي، إنه بداية البداية، وشاعر الحقيقة ومبدع لغة الأدب والشعر الروسية».

ويقول **جوركي** عنه أيضاً: «ما يزال بوشكين أكبر فخر لروسيا، وما يزال يحتفظ لنفسه بمكانة القمة مثل ليوناردو دافنشي بالنسبة للفن الأوروبي».

ويقول **لوناتشارسكي**: «إن بوشكين أنجز لروسيا ما أنجزه دانتي وبترارك لإيطاليا، وعمالقة القرن السابع عشر لفرنسا، وليسينج وشيللر وجوته لألمانيا».

* **ف. ابراموف: أديب روسي معاصر**، يقول: «ما تزال عبقرية (بوشكين) حتى يومنا هذا مستمرة في النمو والتعمق واكتناز القوة».

لقد أحس (بوشكين) بأن الشعب لن ينساه، وفي السنة التي توفي فيها كتب أفضل رائعة شعرية له **(التمثال)** حيث أكد أن روحه سوف تعاني الموت أما «درب الشعب» إليه فلن يعرف ظهور الأعشاب.

* أصبحت **(بوريس جودانوف)** موضوعاً لمقطوعة أوركسترالية شغلت رائد الموسيقى الروسية (مزورسكي) أربع سنوات.

* تكرس قنوات التلفزيون الروسية الكثير من البرامج التي تعكس عبقرية الشاعر باعتباره يمثل صوت روسيا ووعيها الذاتي وضميرها الحي في أيام الاحتفال بعيد ميلاده، وتتناول وسائل الإعلام في الأيام الأخرى أعماله.

* إن أعمال (بوشكين) ليست محصورة على فئة معينة من القراء، حيث أعجب بفنه الأدبي الرفيع العلماء والدبلوماسيون والفنانون والسياسيون في روسيا وخارجها.

* تحولت ضيعته الواقعة في شمال غرب روسيا، وشقته في مدينة سانت بطرسبورج مزاراً لمحبي أدبه من جميع أنحاء العالم، وأصبحت صوره كالأيقونات، وتحولت كلماته الحكيمة إلى نصائح صديق قريب إلى نفس كل إنسان يحب أدبه.

تجميع مؤلفات (بوشكين) وإصدار أعماله الكاملة:

أ. بوشكين، (المؤلفات الكاملة في عشرة أجزاء).

أ. بوشكين، (المؤلفات الكاملة في 12 جزء).

أ. بوشكين، (مقالات ومواد).

* إصدار مئات الكتب والدراسات عن (بوشكين) وأدبه، ولكن تأثر بوشكين بالإسلام والقرآن لم يحظ إلا بالقليل من الكتب والدراسات منها دراسة لكاشتاليوفا ورسالة دكتوراه للناقد بيكين، ودراسة للباحثة ألوبيكوفا، بالإضافة إلى إشارات سريعة

من بيلينسكي وتشرنايف وستراخوف وسومتسوف وليرنر وتوماشيفسكي.

* وفي اللغة العربية ظهرت دراستان هامتان جداً حول تأثر بوشكين بالقرآن والإسلام واللغة العربية:

(الأولى) للدكتورة **مكارم الغمري** (أستاذة الأدب الروسي وعميدة كلية الآداب في جامعة عين شمس بالقاهرة) ونشرتها في كتاب عالم المعرفة (الكويت رقم 155/ 1990)، بعنوان: **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي** تناولت فيه التأثيرات العربية والإسلامية في شعر بوشكين وليرمنتوف وفي أدب تولتسوي وبونين الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1933.

(الثانية) **للأستاذ مالك صقور بعنوان «بوشكين والقرآن»** صدرت عن دار الحارث في دمشق عام 2000، وهي دراسة عميقة بدأها الكاتب الفاضل عندما كان يحضر للماجستير في جامعة موسكو عام 1975 واختار موضوع بوشكين والقرآن. وقد قام الباحث الفاضل بتوسيع بحثه وجعله كتاباً من أهم الكتب في موضوع بوشكين والقرآن.

وهناك كتب أخرى اهتمت بالتأثيرات الشرقية في إنتاج بوشكين مثل كتاب: **د. مكارم الغمري «بوشكين عند نافورة الدموع» و«مختارات أخرى»**، وكتاب **طارق مردود «القصائد**

الشرقية لبوشكين» وهي ترجمة مع تقديم مختصر، وليس فيه أي اهتمام بموضوع القرآن والإسلام في شعر بوشكين، رغم أنه نقل القصائد «التسع قبسات من القرآن» دون تعليق.

وقد أصدر الأديب **نجاتي صدقي** كتاباً عن حياة بوشكين وإنتاجه سنة 1945، نشرته دار المعارف المصرية في سلسلة إقرأ. وهو أحد القلائل الذين عرّفوا القارىء العربي في فترة مبكرة بإنتاج بوشكين. وبطبيعة الحال لم يركز على تأثر بوشكين بالقرآن والإسلام واللغة العربية وآدابها. وقد أهداني نسخة مصورة منه الأخ الأستاذ الدكتور عبد اللّه حسين البار. وكتب الأستاذ عباس محمود العقاد كتاباً عن بوشكين لم أستطع العثور عليه.

وأصدر **حسب الشيخ جعفر كتاباً بعنوان «بوشكين، قصائد مختارة»** وهي قصائد اختارها المترجم حسب الشيخ جعفر ونشرها عام 1981، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت. وليس فيها أي توضيح لتأثر بوشكين بالقرآن والسيرة النبوية.

والمكتبة العربية لا تزال تفتقر إلى دراسات موسعة عن التأثير الإسلامي والعربي في الأدب والشعر الروسي، وخاصة شعر بوشكين الذي يقدّسه الروس. وينبغي نشر شعره المتأثر

بالقرآن باللغة الروسية على نطاق واسع مع تعليقات وشروح من الأدباء الروس أنفسهم أو من المسلمين المتمكنين من اللغة الروسية وآدابها، وهم كثر.

تقدير الروس لبوشكين

ولقد احتفلت روسيا ببوشكين واعتبرته أعظم شعرائها، ولذا فقد أسمت مدينة تزارسكوي سيلو Tsarskoye City باسمه. وتقع جنوب مدينة لينينجراد (بطرسبرج). وفيها قصور بنتها كاثرين الأولى ثم بعد ذلك قصور الملكة كاثرين الثانية. وقد سميت المدينة على اسم بوشكين لأنه درس في معهدها الملكي الليسيه Lycée. وقد حُوّل المعهد إلى متحف باسم ألكسندر بوشكين لأن بوشكين درس في هذا المعهد الملكي من عام 1811 حتى عام 1817. وقد تمّ إطلاق اسم بوشكين على المدينة وعلى المتحف سنة 1937.

وهناك العديد من الميادين والشوارع في موسكو وغيرها من مدن روسيا الهامة التي تحمل إسم بوشكين. ومنها أكاديمية الفنون الدرامية في مسرح لينينجراد (بطرسبرج) أهم ثاني مدن روسيا والعاصمة الإمبراطورية السابقة، كما أطلق اسمه على متحف الفنون الجميلة في موسكو. وأقيم احتفال كبير في ذكرى وفاة بوشكين (المائة) وذلك عام 1937 كما أقيم احتفال ضخم

عام 1999 بمناسبة مرور مائتي عام على مولده.

*** تم تحويل بعض أعماله إلى أوبرات موسيقية ومقطوعات أوركسترالية منها على سبيل المثال:**

ـ ألف (غلينكا ـ الملقب بأبي الموسيقى الروسية) صيغة أوبرالية لقصيدة: روسلان ولودميلا، والتي تعتبر نقطة البداية للموسيقى الروسية.

ـ استلهم (غلينكا) من قصيدة (عفريت الماء) إنجازه الموسيقي المهم (روسكا).

ـ شرع (غلينكا) قبل وفاته بفترة وجيزة بكتابة أوبرا (الضيف الحجري) أكملها عقب وفاته (ريميسكي كورساكوف).

ـ استلهم (ريميسكي كورساكوف) من شعر (بوشكين) أوبرا (القيصر والسلطان).

ـ أما رواية (يفجيني أو نيجين) فقد صاغها (جايكوفسكي) عملاً أوبرالياً رائعاً.

وحول الموسيقار مزورسكي القصة التاريخية الشعرية لوريس جودانوف إلى مقطوعة أوركسترالية.

مراحل حياة بوشكين

ترجمة بوشكين (يونيه 1799 ـ فبراير 1837)

مولده ونشأته الأولى

ولد ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين في موسكو في 6 يونيه 1799 لأسرة أرستقراطية كبيرة. فوالده أحد النبلاء الروس وقد كان متميزاً محبًّا للأدب والشعر، وينظم الشعر أحياناً، وفي قصره كان يفد الأدباء والشعراء. ومنذ نعومة أظفاره استمع الطفل ألكسندر بوشكين إلى أقطاب الشعراء وهم ينشدون قصائدهم في دارهم. ومنهم روس وأوربيون. وكانت الطبقة الأرستقراطية تحرص على تعليم أولادها اللغة الفرنسية خاصة، واللغات الأوربية مثل الإنجليزية والألمانية بصورة عامة.

وكان والده مثل أبناء طبقته يجيد الفرنسية، بل وينظم بها الشعر. وقد أوكلت تربية الطفل بوشكين إلى مربيات فرنسيات كما تفعل الطبقة الأرستقراطية؛ ولهذا كان تعرُّف بوشكين على الآداب الأوربية مبكراً، ولم يكتف باللغة الفرنسية بل أضاف إليها الإنجليزية، وتأثر بصورة خاصة فيما بعد بشكسبير واللورد

بيرون الذي أخذ بلُبِّه في فترة المراهقة. كما كتب وهو طفل شعراً بالفرنسية محاكياً لموليير (كان عمره آنذاك ثمان سنوات فقط) مما يدل على نبوغ مبكر جداً.

وقد لاحظ والده أن اللغة الفرنسية ستطغى على ابنه، فأوكل تربيته إلى مرضعته ومربيته الروسية الفاضلة أرينا رودبوفوفْنا التي أحبها بوشكين حُبًّا جمًّا، وكانت معه في منفاه إلى ضيعة ميخائيلوفسكي في شمال روسيا. ومنها استمدَّ محبته للغة البسطاء. وفي تلك الضيعة اختلط بالفلاحين والعمال فأحبّهم وأحبَّ حكاياتهم وتعبيراتهم، وحوّلها كلها إلى لغته الأدبية الشعرية الراقية في بساطة مذهلة.

تأثير النساء عليه

وكانت (أرينا رودبونوفْنا) الروسية الفلاحة الأصل، تحكي له في طفولته كثيراً من الأساطير الشعبية الروسية. وفي أحاديثها ـ كما يقول بوشكين ـ كانت تتردّد لغة الوطن.

والمرأة الثانية التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً كانت جدته لأمه **ماريا إبراهيم هانيبال**[1] الذي كان إفريقي الأصل من الحبشة أو

(1) إبراهيم هانيبال هو جد بوشكين لأمه. وهانيبال هو إسم الملك والقائد القرطاجني (هاني ـ بعل) الذي هاجم الإمبراطورية الرومانية.. والتف ليدخل روما بالفيلة وأتاها من أوربا (من جبال الألب) فأخلى الإمبراطور الروماني روما =

من أريتريا (وقيل بل من تشاد حسب بعض الأبحاث المتأخرة). وقد خُطِف الطفل إبراهيم هانيبال وهو في سن الثامنة وبيع في اسطمبول. وقد أُعجب السفير الروسي في اسطمبول بذكاء هذا الطفل فاشتراه وأرسله هدية إلى قيصر روسيا بطرس الأكبر.

وقد كان بطرس الأكبر حريصاً على تطوير روسيا واللحاق بأوربا، وذهب بنفسه إلى أوربا ليتعلم فيها صناعة السفن والصناعات الحربية، كما أرسل العديد من أبناء النبلاء ليتعلموا فيها الصناعات والعلوم والفلسفة والآداب. وكان من ضمن من أرسلهم إبراهيم هانيبال الفتى الإفريقي الذي لفت انتباه القيصر بذكائه اللماح، فجعله يدرس الصناعة الحربية البحرية. وتخرّج ضابطاً في البحرية الروسية، ثم وصل بجدّه ومثابرته وشجاعته إلى مرتبة الأميرال، وقائدٍ كبير من قواد جيش بطرس العرمرم. وقد أوجد بطرس نظاماً جديداً للنبلاء يعتمد في الأساس على الخدمات العسكرية التي يقدّمها كبار الضباط والانتصارات التي يحققونها. وكان من الطبيعي أن يصل إبراهيم هانيبال الإفريقي الأصل إلى مرتبة النبلاء في بلاط القيصر بسبب ذكائه ومهارته

= واتجه مباشرة بجيشه ليحل قرطاجنة. وقرطاجنة في شمال تونس وقد أسستها الملكة علشيًا التي وصلتها من لبنان (صور وصيدا) بعد أن اختلفت مع أخيها وفضّلت ترك الدولة الفينيقية في لبنان لأخيها بدلاً من محاربته وأسست دولة قرطاجنة التي نافست روما لعدة قرون.

في صناعة السفن وإدارة الحروب. وأعطاه القيصر ضيعة وأنعم عليه بلقب نبيل وزوّجه ابنة أحد النبلاء وهي نتاليا غاقريلوڤنا.

وكان **إبراهيم هانيبال مسلماً** وبقي محتفظاً بإسلامه سراً لأن ديانة نبلاء روسيا وحاشية القيصر لا بد أن تكون أرثوذكسية، ولو ظاهرياً. ونقلت الجدّة ماريا إبراهيم هانيبال لحفيدها ألكسندر بوشكين حكاية جده الأكبر لأمه. وحدثته عن القرآن والإسلام الذي ألهب خيال هذا الطفل اللماح الذكاء. وقد عاش إبراهيم هانيبال حتى بلغ سن الثانية والتسعين. وكان أحد أولاده جنرالاً هاماً في الجيش الروسي.

ولقد ورث بوشكين من جده لأمه الشعر الجعد الأسود والشفتين المكتنزتين الغليظتين نسبياً. وكان بوشكين يفتخر بجده لأمه، لأنه استطاع، وهو العبد الإفريقي في بلاد الغربة أن يتقن اللغة الروسية، وأن يلفت انتباه القيصر العظيم بطرس الأكبر لفرط ذكائه، حتى وصل إلى مرتبة أدميرال في البحرية الروسية، وأحد كبار قواد جيش بطرس العظيم فأدخله في طبقة النبلاء. وهو أمر يدلُّ على ذكائه المفرط، وإلا فكيف لعبد حبشي أن يتسنّم هذه المكانة المرموقة في بلاط بطرس العظيم. وقد خلّد بوشكين قصة جده في ملحمته الشعرية «عبد بطرس العظيم» (Arab Petra Velkogo).

وكلمة أراب أو العربي في القواميس الأوروبية ومنها اللغة الإنجليزية تعني العبد، ابن الشارع، الهمجي، غير المتحضر. وهو ضمن الموروث الثقافي المعادي للعرب والمسلمين منذ الحروب الصليبية إلى اليوم. فالمورو لفظ يطلق على مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا. وهو لفظ يعني التحقير، ومثله لفظ البربر، لأن البربر هم سكان شمال إفريقيا الأصليون، (يقال إنهم عرب من اليمن هاجروا إليها قبل الإسلام). ولهذا تأتي ألفاظ البربرية والهمجية لتصف هؤلاء العرب، وهو ضمن العداء القديم للعرب والإسلام الذي تكنّه أوربا والغرب لهم.

وسنتحدث عن هذه الملحمة الشعرية فيما بعد عند التعرض لإنتاج بوشكين. وما يهمنا هنا هو أن نؤكد على تأثر بوشكين بسيرة جده لأمه واحتفائه به، وافتخاره بالانتساب إليه. وكانت معرفته لذاك الجد أحد الحوافز الهامة التي دفعت بوشكين لدراسة القرآن والسيرة النبوية فلطالما أخبرته جدته ماريا عن إبراهيم هانيبال ومحبته للقرآن الذي كان يقرأه سراً.

وهكذا نجد تربية بوشكين في طفولته تسير في خطين متوازيين: (أحدهما) ينفتح على الثقافة الأوربية وبالذات الفرنسية حتى يجيدها بوشكين ويقول فيها شعراً منذ طفولته الباكرة، و(الثاني) خط الثقافة الشعبية الروسية وحكاياتها التي كانت تمده بها مربيته أرينا رودبونوفنا الفلاحة الروسية.

وقد أضيف إلى ذلك حكايات جدته ماريا عن جده لأمه إبراهيم هانيبال وتأثيراتها العميقة.

وفي منزل والده رأى وسمع العديد من الأدباء والشعراء، نذكر منهم كارمازين وجوكوفسكي وباتوشكوف. ووالده على اطلاع واسع بالأدب ومجريات الأمور، وعمه شاعر (وإن لم يكن من الشعراء المرموقين في روسيا). مع وجود مكتبة غنيّة وثريّة بالآداب والشعر والفنون والعلوم، ووالده قد ينظم الشعر بالفرنسية، وفي سن الثامنة نظم بوشكين شعراً بالفرنسية!!

وفي سن الثانية عشرة أي عام 1811 انتقل بوشكين إلى مدينة بطرسبورج ملتحقاً بالليسيه (معهد تسارسكوي سيلو)، وهو معهد خاص أنشأه القيصر بالقرب من العاصمة بطرسبورج لتخريج طبقة الحكام والمثقفين من أبناء الطبقة الأرستقراطية، وكانت الدراسة في هذا المعهد العالي ست سنوات.

وقد تحولت هذه المدرسة إلى متحف وسميت المدينة تسارسكوي سيلو على إسم بوشكين، وذلك سنة 1937، في الاحتفال بالذكرى المئوية لمقتل الشاعر العظيم بوشكين.

ظهور شاعريته وعبقريته المبكرة

وقد بدأ بوشكين يقرض الشعر منذ أن التحق بهذه المدرسة أي وهو في سن الثانية عشرة. ومنذ عام 1814 (أي

وهو في سن الخامسة عشرة) بدأت أشعاره تأخذ طريقها إلى النشر باسم مستعار أول الأمر، ثم باسمه كاملاً بعد أن شجَّعه الشاعر الكلاسيكي ديرجافين على نشر شعره باسمه. وفي قصيدته «ذكريات» يتوقد الشاعر الصبي حماساً قومياً في وجه جحافل نابليون التي بدأت تغزو روسيا. وكانت قصائده تتلهب ناراً على العدو الغازي، وتذكي روح الحماسة الروسية في الذود عن حياض الوطن.

وفي أعماله الأولى، انتقل الشاعر الصبي من التأثر بفولتير الساخر إلى أوسيان المكتئب، ثم انتقل إلى غنائيات جوكوفسكي الرومانسية الحزينة التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً في هذه الفترة المبكرة من حياته المليئة بالأحداث والنبوغ المبكر. وتأثر بالإضافة إلى ذلك بحكايات كريلوف الشعرية الساخرة، وواقعية فونفيزون وشعبيتها، وتأثر بثورية راديشيف تأثراً عميقاً جداً.

ومعهد النبلاء (معهد تسارسكوي سيلو) كان فيه مدرسون عاديون كما كان فيه مدرسون متميزون منهم (بودري مارا) أستاذ اللغة الفرنسية وشقيق (دافيد مارا) أحد زعماء الثورة الفرنسية الكبرى، والبروفسور كونيتسين، أستاذ علم الاجتماع، وهو روسي تثقف في أوربا وتأثر بحركة حقوق الإنسان والديمقراطية الموجودة في أوربا الغربية آنذاك، وكان لهؤلاء الأساتذة دور في

تغذية النزعة التحررية والديمقراطية والإنسانية لدى بوشكين.

وقد حدثت أثناء فترة الدراسة أحداث جسام أهمها غزو نابليون لروسيا وإحراق موسكو ومقاومة الروس البطولية حتى هزموا نابليون هزيمة ساحقة ولم ينج من جيشه الذي جاوز نصف مليون سوى ثلاثين ألف جندي. وكانت هذه الحادثة حافزاً له في إصدار بعض أعماله الأدبية.

وفي أثناء الدراسة اتصل بوشكين بضابط شاب يدعى **تشادايف** وهو في نفس الوقت أديب وفيلسوف وثائر وأحد الضباط الديسمبريين. وقد أعجب بوشكين بتشادايف وتوطدت بينهما صداقة متينة رغم فارق السن بينهما.

وكانت قصيدة (إلى صديق الشاعر) أول باكورة أعمال بوشكين المنشورة التي نشرتها مجلة (الرسول الأوربي) الصادرة في بطرسبورغ.

وفي حفل التخرج يناير 1815 حضر عميد شعراء الروس درجافين ووزير المعارف رازموفسكي وغيرهم وبدأوا بامتحان الطلاب، ولما جاء دور بوشكين ألقى بصوت جهوري قصيدته العصماء (ذكريات القرية القيصرية) التي أعجب بها عميد الشعراء درجافين لدرجة أنه أراد أن يعانق الطالب بعد الانتهاء من قصيدته ولكن الشاعر الشاب هرب لشدة تأثره. وكان

درجافين يتمتم: هذا هو خلف درجاڤين. وقد أثبت التاريخ أن الشاب الصغير ألكسندر بوشكين ليس خلفاً فقط لدرجاڤين ولكنه يفوق أي شاعر روسي ظهر في الماضي أو سيظهر في المستقبل.

وكان الأدباء والشعراء الكبار يعاملونه بعد هذه الحادثة كالند للندّ. وارتبط بالمجموعة الديسمبرية دون أن يدخلوه في تنظيمهم السري حفاظاً عليه من بطش القيصر إذا انكشف أمرهم.

بداية الثورة النفسية ضد ظلم القيصر والإقطاع

أنهى بوشكين دراسته في المعهد الملكي سنة 1817 والتحق وهو في سن الثامنة عشرة بوزارة الخارجية في بيترسبورغ (العاصمة الإمبراطورية والتي تحولت إلى لينينجراد ثم عادت إلى اسمها القديم بعد اختفاء الشيوعية). وتأثر بوشكين بالأفكار الثورية الجديدة وتردد على جمعيات ثقافية مثل جمعية «أرزاماس» وجماعة «القنديل الأخضر» و«عصبة إنقاذ الوطن».

وبدأ بوشكين يكتب مقطوعاته الشعرية الساخرة من الأوضاع الراكدة والمتعفنة. ولكن الشاعر المرهف يضيق صدره من بطالة «الوسط الراقي» وفراغه الفكري فأخذ يتجه إلى الجماعات الحُرَّة، إلا أنهم ـ بسبب سريتهم الشديدة وخوفهم

من بطش السلطة ـ لم يدخلوه في تنظيماتهم الخاصة. . . وظهرت قصائده الثورية مثل قصيدة الحرِّية التي انتشرت سراً وفيها يقول:

ألا ابتعدي عن طريقي
يا ربة الأوتار الخافقة
أين أنت، أين أنت أيتها العاصفة الرجولية؟
يا مغنّية الحرية الفخورة.
اقتربي ومزّقي إكليلي
وحطّمي قيثارتي الناعمة
أريد أن أتغنّى الحرية الإنسانية
وأفضح الرذيلة في عروشها.

وفي قصيدته «القرية» يتحدّى الإقطاعي الذي يذلُّ الفلاح ويجعله قِنًّا وعبداً، وفيها يقول:

آه لو أن لصوتي القدرة على أن يهز النفوس
لم هذا اللهب المتوقد في صدري
ولمَ تُمنحُ لي موهبة الكلمة الرهيبة؟
أتراني أرى شعبنا، يا أصدقائي، وقد تحرَّرْ
من جور العبودية بأمر من القيصرْ
أولم يحن لفجر الحرية الرائع
أن يشرق على وطننا أخيراً

وبمثل هذه القصائد التي تتحدث عن الشعب، وعن القرية وعن الثورة ضد الظلم، والطموح إلى الحرية والعدالة والمساواة كانت شعبية بوشكين تزداد، وقصائده تتناقلها الأيدي والأفواه. . . وتصل هذه القصائد الثورية إلى مسامع السلطة بل إلى مسمع القيصر أليكساندر نفسه مما أغضب القيصر وجعله يأمر بنفيه إلى مجاهل سيبيريا، ولكن أصدقاء مقربين من القيصر استطاعوا أن يخفّفوا الحكم إلى النفي إلى الجنوب. . . إلى القوقاس. وصدر الأمر عام 1820 (لاحظ أن بوشكين كان في الواحدة والعشرين من عمره فقط) وقبل نفيه كان بوشكين قد انتهى من عمله الدرامي الشعري الأول «**روسلان ولودميلا**».

«روسلان ولودميلا» وتأثره بألف ليلة وليلة

وهي ملحمة طويلة روسية خرافية متأثرة إلى حد ما بملحمة فولتير «عذراء أورليان» وتتميز بروحها الرومانسية العذبة ولغتها الشعرية البسيطة القريبة من اللغة المحكية لدى عامة الروس ممّا وفّر لها شعبية كبيرة.

وفي هذه الحكاية ينتقل البطل عبر أجواء خرافية متنوعة، من مغامرة إلى أخرى بحثاً عن عروسه المختطفة التي أغلق عليها الجني الخبيث أبواب قلعته المجهولة، وبعد مغامرات من الفارس ونصائح من العجوز الحكيم يقطع الفارس لحية الجنّي التي يكمن فيها سرّ قوّته (على غرار قصة شمشون في العهد

القديم سفر القضاة الذي تكمن قوّته في جدائل شعره الطويل).
وتنتهي القصة بانتصار الفارس على غريمه الساحر والتقاء الحبيبين في آخر المطاف.

وقد قامت الدكتورة مكارم الغمري في كتابها القيّم: «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي» بدراسة «ملحمة روسلان ولودميلا» دراسة متأنية وعميقة، وأكدت أن بوشكين قد تأثر فيها بشكل كبير جداً بقصص ألف ليلة وليلة. وقالت إن تأثير «ألف ليلة وليلة» يتجلى في العديد من مؤلفات بوشكين ومنها ملحمة «روسلان ولودميلا» و«ليال مصرية» و«أندجيلو» و«القمر يتألق» و«التعويذة».

ورغم ما في ألف ليلة وليلة من الأساطير إلا أنها بالتأكيد مليئة بالتأثيرات الدينية الإسلامية وهو ما يظهر في حكاياتها واستدلالتها بالقرآن وبالأشعار الدينية.

وقد أشار المستعرب والباحث الكبير **كراتشكوفسكي** إلى أن قصص «ألف ليلة وليلة» و«القصص الشرقية» «كانت أكثر الضروب الأدبية المحبّبة في أدبنا الروسي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر»[1].

(1) كراتشكوفسكي: المؤلفات المختارة ص 42، نقلاً عن مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية ص 49.

وذكر بلكين في كتابه «تصور الشرق في إنتاج بوشكين» أن بوشكين تأثر بألف ليلة وليلة ولكنه بنى المضمون الخيالي لروسلان ولودميلا على طريقته الخاصة.

وسنذكر بشيء من التفصيل التأثيرات الإسلامية عند استعراض أعمال بوشكين. ونكتفي هنا بهذه اللمحة.

النفي إلى القفقاس وإنتاجه الغزير

ولكن نقلة بوشكين إلى القوقاس لم تكن عبثاً ولا عبثاً، بل أغنت مشاعره وأذكت روحه الوقّادة، وعرَّفته على شعوب القوقاس (أغلبها من الشعوب الإسلامية) وفي نفس العام (1920) انطلق بوشكين وأخرج قصيدته الملحمية الطويلة «**أسير القفقاس**».

ويتلخص موضوع القصيدة في قصة فتى روسي حالم يجد نفسه أسير أهالي القوقاس الجبليين الأشداء. وفي غربته وحنينه إلى قومه، تتعلق به صبيّة شركسية جميلة، وتزوره في سواد الليل البهيم، وتحطم أغلاله وتطلق أسره، وتقوده إلى النهر ليجتاز إلى الضفة الأخرى سابحاً ومنطلقاً إلى الحرية والأهل والوطن. أما الصبيّة الشركسية فقد امتلأ قلبها بالحزن لفراق الحبيب الذي أحبَّته عن بعد، وأنقذت حياته من الأسر، كما امتلأ قلبها خوفاً من أهلها، إن هم عرفوا بما فعلت، ولا بدَّ لهم أن يعرفوا،

فقرَّرت لذلك أن تتخلص من عذاباتها بإلقاء نفسها في لجج اليمِّ ليبتلعها النهر ذاته الذي أنقذ حبيبها.

وأحسَّ بوشكين وهو في القوقاس بفطرية وصدق القبائل المسلمة وحسِّها الرائع وشجاعتها المثالية... وبدأ بوشكين مثل كثيرين من الرومانسيين الذين يهربون من صخب المدينة وطبقتها المترفة المخملية إلى نقاوة الطبيعة والريف، وإنسانه الصادق البسيط.

لقد أثّر بوشكين بشعره عن إنسان القوقاس البسيط وغيّر النظرة عنه، والذي كانت تصوره الأدبيات الروسية بصورة بشعة تشبه ما تقوم به أجهزة الإعلام اليوم في روسيا عن الشيشان الإرهابيين، وما تقوم به الأجهزة الإعلامية الغربية عن إرهابية ودموية المسلمين... إلخ.

وكان بوشكين لساناً جديداً صادقاً حارًّا يتحدث عن بساطة هذا الإنسان الجبلي الفطري البعيد إلى حد كبير عن مترفات الحضارة، ولكنه يملك زمام الشعور بالتفرّد والصدق والأمانة وإنسانية الإنسان التي فقدها كثير من مترفي المدن، وبالذات الطبقة المخملية. وجعل العلاقات ودية بين الروسي وفتاة شركسية أو شاب شيشاني في أعماله.

وقد أوضح بوشكين في كثير من قصائده في القوقاس

التنافر بين جمال الريف وجبال القوقاس، وطهارة سكانه الجبليين الأشداء، على بداوتهم وتخلّفهم الحضاري، وبين سكان المدن الكبرى المترفين، وخاصة الطبقة الأرستقراطية المترهّلة والمكتنزة اللحم والشحم، والفارغة من كل معنى إنساني نبيل.

وقد تأثر ببوشكين تأثراً كبيراً في هذا المجال شاعر روسي فحل لكنّه لم يجد من الشهرة ما وجدها بوشكين هو ليرمنتوف الذي ركّز على التناقض الشديد بين الطبيعة البدائية الفاتنة، وبين الطبقة المترفة المخملية التي تسكن في العواصم والمدن الكبرى.

وكما تأثر بوشكين بهؤلاء الرجال الأشداء من أهل القوقاس المسلمين تأثر كذلك ليرمنتوف بالتراث الإسلامي، وظهر ذلك جليًا في كثير من قصائده.

وهذا الاهتمام بالريف وبالإنسان البسيط ينتقل إلى كوكبة من أدباء روسيا وشعرائها وعلى رأس القائمة نجد جوجول في معطفه (أشهر قصص جوجول المعطف) ودوستوفيسكي في الأخوة كرامازوف وفي الجريمة والعقاب... وفي حياة النبيل تولوستوي الذي انضم إلى الفلاحين في حياتهم البسيطة، وترك طبقته وأسرته وأمواله وجزءاً من أرضه وضياعه، وتبرّع بها لهؤلاء الفلاحين البسطاء، ليعيش بينهم ويموت بينهم، بعد أن

تقطعت كل الوشائج بينه وبين روسيا القيصرية، وكنيستها الأرثوذكسية، وطبقتها الأرستقراطية. لقد قامت الكنيسة بطرد هذا الرجل النبيل الكريم الرحيم من مملكتها وادعت أنها طردته من مملكة الرّب، لأنه فضح زيفها وكذبها ونفاقها، وارتباطها مع القيصر وملاك الأرض الإقطاعيين وأيّدت كل الظلم الواقع على الإنسان البسيط، على الفلاح والعامل، وأيّدت أن يبقى أهل الريف عبيداً إلى الأبد عند أسيادهم حيث كان الإقطاعي يملك الأرض ومن عليها.

لقد ثار تولستوي على هذا الظلم وأشاد بالإسلام ونبيّ الإسلام وترجم مجموعة من أحاديث الرسول عن اللغة الإنجليزية وأراد أن يجعلها في ترجمتين، واحدة للأطفال، وأخرى للكبار، على اعتبار أن روسيا لن تقوم لها قائمة، ولن يتم لها الإصلاح إلا باتباع الأخلاق العظيمة التي أوصى بها المسيح والنبي محمد عليهما الصلاة والسلام.

في فترة القوقاس قدَّم بوشكين عمله الملحمي الثالث الطويل وهو قصيدة «نافورة باختشي ساراي» ويظهر تأثير شبه جزيرة القرم التي انتقل إليها بأمر من القيصر. والقرم جزيرة إسلامية منذ دخلها التتار المسلمون في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين... وكان خانات التتار يهددون روسيا، ولكن حاكمها الخائن استطاعت أن تلعب بلبّه الملكة اللعوب

كاثرين الثانية، فوقَّع لها صك التنازل عنها. ثم قامت الدولة العثمانية باستدعائه ومحاكمته، وإثبات خيانته، وقتله لفعلته الشنيعة تلك.

وكانت الأدبيات الروسية مليئة بقصص الخانات المتوحشين الغلاظ القساة. لهذا كانت «نافورة باختشي ساراي» تتحدث عن هذا الخان الذي يحب أسيرة بولندية من طبقة الأمراء... تلك الشقراء الرقيقة الجميلة «ماريا» المتوجعة غُربة واشتياقاً إلى موطنها، غير آبهة بهوى الخان العظيم الجامح... وفي قصر الخان زوجات أخر من بينهن الجورجية زاريما التي امتلأت حقداً على هذه البولندية الشقراء التي سلبت لبَّ الخان، بعد أن كان لها محباً ومؤثراً... ورغم محاولاتها العديدة في إعادة الخان إلى حبّها إلاّ أنها فشلت، وازداد بالشقراء هياماً. فما كان من الجورجية زاريما إلا أن قامت بقتل ماريا الملائكية... وفجع الخان بهذه الجريمة، وبنى الخان في ذكرى حبِّه الفاجع نبعاً مرمرياً رامزاً إلى لوعته الباكية، وصفاء هواه القتيل، وطهارة حبيبته الشقراء. لقد استطاع الحبُّ أن يحوّل هذا الخان القاسي إلى إنسان رقيق فياض بالمشاعر الإنسانية... والقصيدة مليئة بالأجواء الساحرة من ليالي القصر الشرقي والجواري في حوضهن الرخامي.

وفي نفس الوقت ازداد اتصال الشاعر بالجماعات الثورية التي قامت فيما بعد بثورة ديسمبر المشهورة ضد القيصر. ولكن رجال هذه الجماعة، رغم مودتهم للشاعر الرقيق، كانوا متحفظين

تجاهه معلّلين أنفسهم بأنهم، نتيجة حرصهم البالغ على حياة الشاعر، كانوا يجنّبونه الدخول في تفاصيل تنظيمهم. . . فدور الشاعر بوشكين أهم من دور الثوري المنظّر معهم.

وفي عام 1823 كانت كثير من الثورات في أوربا تواجه الفشل إثر الفشل أمام السلطات الحاكمة مما أثر على نفسية بوشكين الثورية. ولهذا سجل في قصيدته «الشيطان» مهارته في وأد الطهارة والنقاء الثوري، ويبث في نفسه اليأس والإحباط.

وفي عام 1824 كتب قصيدته الرومانسية الطويلة **«الغجر»** وهي أكثر أعماله أهمية في مرحلة العشرينات. ثم بدأ بعدها بكتابه روايته الشعرية «يفجيني أو نيجين» التي استغرقت سبع سنوات كاملة من عمره الشعري.

المنفى إلى ضيعة ميخايلوفسكي وإنتاجه فيها

وقد وصلت قصائده إلى السلطة وإلى القيصر نفسه، ومنها قصائد ورسائل ضد الولاء التام للقيصر، فيتم نفيه مرة أخرى من أوديسا[1] في الجنوب إلى أقصى الشمال في قرية

(1) أوديسا ميناء هام وجميل على البحر الأسود، كان تابعاً لتركيا ثم استولت عليه روسيا. وفي العهد السوفييتي كان تابعاً لأوكرانيا فلما استقلّت أوكرانيا أخذت معها أوديسا والقرم. وقد جعل خروتشوف الأوكراني أوديسا والقرم تابعة لأوكرانيا ضمن الاتحاد السوفيتي عند توليه السلطة. ولم تستطع روسيا بعد ذلك استرجاعها بعد الاستقلال 1990 فذهبت إلى أوكرانيا. وبقيت مشكلة الأسطول الروسي في أوديسا والقرم محل نزاع بين روسيا وأوكرانيا.

ميخايلوفسكوي حيث كانت لوالدته ضيعة هناك.

كان بوشكين في منفاه الشمالي في قرية ميخايلوفسكي يعاني أشد المعاناة، في الريف المقفر النائي وأمامه السهوب الموحشة والخريف بأمطاره وأوحاله... وفي عزلته هذه لم يكن معه غير مرضعته العجوز أرينا، وهو يعبُّ من قصصها الشعبي المليء بالأساطير. وتتحول هذه الأساطير إلى قصائد: «السمكة الذهبية»، «أوندين»، «القيصر سلطان»... إلخ.

وفي عزلته، يغدو الشاعر أكثر قرباً من لغة الشعب وحياته وبساطته. وتأخذ أعماله الشعرية لغتها الواقعية الروسية العميقة... ويكمل الشاعر فصولاً من مسرحيته الشعرية الطويلة «يفجيني أو نيجين»، كما يكتب عملاً مسرحياً صغيراً هو «مشهد من فاوست».

وفي هذه المرحلة ظهرت روسية بوشكين العميقة. لم تعد قصائده متلفّعة بالشال الرومانسي أو متسربلة بالجلباب الشركسي (القوقاس) أو الأسمال الغجرية الفاقعة، إنها الآن روسية بحتة من قلب الشعب الروسي وأساطيره ولغته البسيطة، تنبع منها وبها تتصل وتتجذر في أعماقه. كان بوشكين في احتكاك واعٍ مع القرويين، في أسواقهم وحفلاتهم وأغانيهم وأقاصيصهم. يقول بوشكين: «إن تفحّص الأغنيات القديمة والأقاصيص الشعبية شيء ضروري في اكتساب المعرفة الشاملة بالينابيع

الأولى للغة الروسية. . . إن أمثال هؤلاء العميان، الباعة القرويين يمتلكون لغة صافية رائعة تبعث على الدهشة».

وفي عام 1825 في منفاه الشمالي تتفتق شاعريته عن عمل واقعي جديد هو «**الكونت نولين**» وهي قصيدة واقعية تهكّمية، بعيدة عن خطّه الرومانسي السابق. إن لغته هنا نثرية ترتفع شعراً.

ثم ظهر له عمل شعري آخر هو «**مأساة بوريس جودنوف**» وهي تعرض أحداثاً تاريخية جرت في روسيا في أواخر القرن السادس عشر، ويستطيع بوريس جودنوف أن يعتلي العرش بعد أن قتل القيصر الطفل فيدور بن إيفان الرهيب ليظل العرش فارغاً، وبالتالي يصل إليه باعتباره أقرب المقربين من القيصر. وبعد اعتلائه العرش يظلُّ الطفل القتيل ينغّص عليه نومه وصحوه، يؤنب ضميره، ويخز قلبه.

وفجأة يظهر مدعي زائف يُدعى ديمتري ويقول إنه هو الطفل المختفي الأحق بالعرش من جودونوف، وتقوم المعركة بينهما، ويحاصر الدعيُّ الكرملين. وفي تلك الفترة يصاب جودونوف بنزيف دماغي، يفقده القدرة على الحركة والكلام بينما ينضمّ قائد جيشه إلى المدعي الزائف ذيمتري. . .

ويموت جودونوف وتنتحر ابنته كما ينتحر ابنه، فتسري في

الشعب همهمة قوية أن ديمتري ليس إلا مدّعياً مزيفاً، فينفضّ الشعب عنه ويترك الاحتفال بتنصيبه قيصراً. وفي صمته الرهيب يكون الشعب قد رفض الكذب والزيف.

وفي ديسمبر 1825 انطلقت الثورة التي عرفت بثورة الديسمبريين ضد القيصر ووصلته الأنباء في منفاه بعد أسبوعين، وتألم لانكسار الثورة تحت ضربات القوى المؤيدة للقيصر الجديد نيكولاي (نيقولا) الأول، الذي تولى بعد وفاة القيصر السابق (الإسكندر الأول) وتنازل الأخ الأكبر قسطنطين لأخيه نيكولاي (نيقولا).

وفي هذه الظلمة الروحية الخانقة يكتب الشاعر قصيدته الجليلة «النبي» أو «الرسول» والتي استلهم فيها قصة نزول الوحي على محمد ﷺ في مكة وقصة شق الصدر، وهو ما سنستعرضه كاملاً عند الحديث عن شعر بوشكين المرتبط بالقرآن والإسلام.

القيصر يستدعي بوشكين

وفي عام 1826 يقوم القيصر الجديد باستدعاء بوشكين من منفاه وإعادته إلى بطرسبورج ويقابله القيصر بنفسه، ويشكو له بوشكين من الرقابة المشدّدة حوله، فيقول له القيصر: من الآن فصاعداً لن يكون لك رقيب غيري. وبالتالي زادت الرقابة

عليه وعلى تحركاته كلها. وبدأ يعيش وكأنه في المنفى رغم أنه في العاصمة بطرسبورج. ويكتب بوشكين قصائده، يشدُّ على أيدي أصدقائه المنفيين في سيبيريا في قصيدته «أعماق المناجم السيبيرية» وقصيدته «أريون» الطافحة بالأسى و«شجرة الأوباش» التي تقطر سُمًّا وترمز إلى تحكم القيصر وخضوع العبيد.

وينتقل بوشكين إلى بيترسبورج (بطرسبرج) العاصمة الإمبراطورية العتيقة، ولكن حاله لا يزداد إلا سوءاً. وهناك أنهى عمله الشعري الملحمي (بولتافا) عام 1828. وتنتهي معركة (بولتافا) بانتصار الروس وتفوقهم على الخطر السويدي الزاحف.

الذهاب إلى تركيا وقصيدة اسطمبول

ويسمع بوشكين عن القتال الدائر في الجنوب بين الأتراك وروسيا، ويرحل جنوباً دون إذن من القيصر ليشارك في الدفاع عن وطنه... وفي القوقاس تنتعش روحه، ويحاول الالتحاق بالجيش ويذهب معهم إلى أرضروم في تركيا. وهناك وضع قصيدته الرائعة «اسطمبول». ولكن القائد، وهو من أصدقائه ينصحه بالعودة إلى موسكو.

زولجه

وعندما عاد إلى موسكو عقدت خطبته القدرية على أجمل

صبايا المدينة ويتزوجها عام 1831، ولكن هذه الزوجة الجميلة تتلقى معاكسات وغراميات الكثيرين. ويتحداه أحد الضباط وهو جورج دانتسي هيكرن (فرنسي تبناه السفير الهولندي هيكرن) ويطلبه إلى المبارزة بعد أن غازل زوجته أمامه، فما كان من بوشكين إلا أن قبل التحدي وبارز الضابط المتمكن من سرعة إطلاق النار فخرّ الشاعر الرقيق صريعاً وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره تاركاً أرملته الجميلة ووطنه الذي أحبَّه وغنّى له وملايين المعجبين.

وفاته

في عام 1837 انتهت حياة الإسكندر بوشكين بعد أن قدم عشرات الملاحم والروايات الشعرية ومئات القصائد. وآخر أعماله الملحمية كان «الفارس النحاسي» التي يتجلى فيها شعره في أوج نضجه ونقائه. وفيها يقف ضد الممثل الإقطاعي ورجل الانتصارات والقائد المظفر المستبد، ويندد الشاعر بهذا الوثن الجديد الذي يريدون من الجماهير أن تعبده. إنه وجه جديد للاستبداد والطغيان يرفضه الشاعر الفحل بكل إباء. والفارس النحاسي أو البرونزي هو تمثال بطرس الأكبر.

ورثى الشعراء بوشكين وبكته الأمة بأكملها، واعتبرت أن المبارزة قد دُبرت بأمر من القيصر نفسه ليتخلص من بوشكين

الشاعر الفحل الذي ندَّد بالظلم ووقف مع الفلاحين والعمال وبقية الشعب، ضد الطغاة والبغاة مهما علت أوسمتهم ونياشينهم وألقابهم.

والتفت الجماهير باكية لتلقي نظرة الوداع على شاعرها الفحل. وكان هذا أول تجمع للجماهير بعد ثورة الديسمبريين (25 ديسمبر 1825) وسرعان ما انتبهت السلطات، وتجمعت الشرطة حول منزله، وتمَّ تفريق المجتمعين، وأُخذ جثمان بوشكين في الليل على زحافة إلى ضيعة الشاعر ومنفاه الشمالي ميخايلوفسكي... ولم يكن مع الجنازة أحد سوى شرطي وصديق واحد هو أ. تورجينيف، (وهو غير تورجينيف الأديب المشهور).

مرثية ليرمنتوف

وانتشرت قصيدة ليرمنتوف في رثاء بوشكين بشكل أزعج السلطات وأدى إلى أن تنفي ليرمنتوف أيضاً إلى القوقاس. يقول ليرمنتوف:

قضى الشاعر أسيراً لشرفه
هوى بهامته الفخورة
وسط الإشاعات الكاذبة
الرصاصة في قلبه، والتوق إلى الثأر

لم تطقْ روحه النبيلة
احتمالاً لإساءة التافهين من علية القوم
فوقف في وجه أقاويلهم الباطلة
وحيداً كما عهدناه... وقُتل

لمحة عن إنتاج بوشكين

رغم أن بوشكين قتل في قمة مجده وتألقه الشعري والأدبي في سن السابعة والثلاثين إلا أن إنتاجه الشعري والأدبي كان من الغزارة بحيث يتفوق على كثير من الأدباء والشعراء في الكم والكيف. وقد صدرت أعماله الكاملة في موسكو في 12 مجلداً، كما صدرت قصائده ودواوينه الشعرية في طبعات خاصة متعددة. وحفلت بمئات الدراسات عن إنتاجه وحياته.

الأعمال الشعرية

(1) رسلان ولودميلا سنة 1820.

(2) سجين القوقاز سنة 1821.

(3) جابر ينياد سنة 1821.

(4) الأخوة اللصوص سنة 1822.

(5) نافورة بغجه سراي (باختشي سراي) سنة 1823.

(6) الغجر سنة 1824.

(7) الكونت نولن سنة 1825.

(8) بولتافا (تصف معركة الانتصار على السويد) سنة 1829.

(9) المنزل الصغير في كولمنا The Little House in Kolomna سنة 1830.

(10) الفارس النحاسي (الفارس البرونزي) وهو تمثال بطرس الأكبر سنة 1833.

(11) اسطمبول وقد أنشأها عام 1829 ونشرها عام 1835.

قصة شعرية

(1) يفجيني أو نيجين: وتعتبر أهم أعماله، وقد وضعها بعد أن نفي إلى ضيعة ميخايلوفسكي. وتتميز بالواقعية والبعد عن الرومانسية وأنها روسية حتى العظم. واستغرقت كتابتها سبع سنوات 1825 ـ 1832.

الدراما

(1) بوريس جودانوف، وهي دراما تاريخية تندد بالقياصرة (سنة 1825).

(2) التراجيديات الصغيرة، وهي مجموعة من القصص التراجيدية وضعها عام 1830.

النثر

(1) عبد بطرس الأعظم (قصة جده لأمه إبراهيم هانيبال).

(2) حكايات إيفان بتروفيتش بلكين، وهي مجموعة من القصص

تشمل ابنة الآمر ومدير المحطة، والمتعهد (الحانوتي) والعاصفة والطلقة. وظهرت عام 1831.

(3) ملكة المسحاة (لعبة الورق) Queen of Spades سنة 1833.

(4) كيركاي (قصة قصيرة) سنة 1834.

(5) الليالي المصرية سنة 1835.

(6) ابنة القبطان سنة 1836.

(7) قصة قرية جوريخنو (لم تتم) سنة 1837.

(8) دوبرفسكي (قصة طويلة لم تتم) سنة 1841 (أي ظهرت بعد وفاته).

حكايات وأساطير شعرية

(1) حكاية القسيس وعامله بالدا سنة 1830.

(2) السلطان القيصر سنة 1831.

(3) حكاية الأميرة الميتة والفرسان السبعة سنة 1833.

(4) حكاية الديك الذهبي الصغير سنة 1834.

(5) حكاية الصياد والسمك سنة 1835.

أهم قصائده المتعلقة بالقرآن والسيرة النبوية والآداب العربية والإسلامية

(1) تسع قصائد تحت عنوان «اقتباس من القرآن» أو «محاكاة القرآن».

(2) قصيدة النبي أو الرسول.

(3) قصيدة من وحي العربي.

(4) قصيدة ليلى (تركتني ليلى).

(5) نافورة باختشي سراي، وتحكي قصة حاكم القرم المسلم والخان كراي وفيها التفاتات دينية إسلامية قوية.

(6) رسلان ولودميلا، وفيها تأثر بقصص ألف ليلة وليلة وبعض المعاني الإسلامية.

(7) أسير القوقاز، وفيها صورة نقية لحياة أهل القوقاس المسلمين.

(8) قصيدة اسطمبول، كتبها عندما ذهب إلى أرضروم مع الجيش الروسي لمحاربة تركيا 1829 ونشرها عام 1835.

الفصل الثالث

التأثيرات الإسلامية العربية
في إنتاج بوشكين

تأثر بوشكين بالقرآن كما يراه النقاد الروس

إن هذا الجانب من حياة بوشكين لم يحظ بما يستحقه من الدراسة والاهتمام. وكثير ممن كتبوا عن بوشكين أهملوا هذا الجانب إما عمداً، أو عن عدم فهم وإدراك للتأثيرات الإسلامية العربية في إنتاج بوشكين. ولهذا فإن الجماهير الروسية التي تعشق بوشكين، والتلاميذ الذين يدرسونه في مدارسهم لا يعرفون عن هذا الجانب شيئاً.

وليس غريباً أن يتم تجاهل هذا الجانب من إنتاج بوشكين الوفير والغزير، فالعهد القيصري الذي عاصره بوشكين كان بصورة عامة معادياً للإسلام، وأما العهد البلشفي الشيوعي الذي خَلفه منذ ثورة أكتوبر 1917، فإنه كان شديد العداء للإسلام، وخاصة بعد أن تمكّن من القضاء على أعدائه من رجال عهد

روسيا البيضاء من أمثال كولتشاك ودينكين الذين كانوا يدعون إلى نظام ديمقراطي وملكية دستورية، على الخط الأوربي الغربي المعروف.

لهذا كله نجد تجاهلاً عاماً لهذا الجانب لدى الدارسين لبوشكين ما عدا قلة. ونجد الناقد الأديب **بيلينسكي** الذي تخصص في أعمال بوشكين يذكر قصائد بوشكين التسع «قبسات من القرآن» أو «محاكاة القرآن» ذكراً سريعاً جداً. ورغم أنه أشاد بها وقال عنها: «إنها الماسة البراقة في تاج بوشكين الشعري». و«أن هذه القصائد تعكس روح الإسلام وجمالية الشعر العربي»[1]، إلا أنه لم يولها أي دراسة، رغم تكريسه حياته كلها لأعمال بوشكين.

وقد ذكر الناقد **تشرنايف** أن بوشكين نقل الجانب الفلسفي الديني للقرآن. وأن كتاب المسلمين والشرق (أي القرآن) قد أذهل بوشكين. وإنه لمن المدهش أن القرآن هو الذي أعطى بوشكين أول هزة للانبعاث الديني. ولهذا كان له مغزى كبير في حياته الخاصة.

ويقول أيضاً: «إن ما لفت انتباه بوشكين في القرآن،

---

(1) بيلينسكي: المؤلفات الكاملة، مصدر سابق، نقلاً عن مالك صقور «بوشكين والقرآن» دار الحارث، دمشق، 2000 ص 105.

ليست القيم الأخلاقية والتبجيل، بل التمجيد الشاعري للرحمن وعظمة الله وجبروته، وأن الذي أدهشه في القرآن وأذهله مهابة الله وعظمته المتعلقتان بعقيدة الإسلام التوحيدية، والتي حاول بوشكين أن يعكسها في قصيدته تلك»[1].

وهذه ملاحظات جيدة من تشرنايف، وقد أذهل القرآن الكريم بوشكين في جوانب كثيرة، منها: أسلوبه الفذ وشاعريته وموسيقاه، ولكن أهمها دون ريب هو عقيدة التوحيد الخالصة وعظمة الله وجبروته ورحمته وقيوميته، وصفات الله سبحانه وتعالى وأسماؤه الحسنى... وهي أمور تفتقدها المسيحية المحرّفة التي أدخلت العقائد الوثنية والتثليث في صلب عقيدتها الدينية حتى غطّت على عقيدة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام.

وقد ذكر الناقد ستراخوف: «أن بوشكين لديه إحساس صادق بالنصّ الأصلي (أي القرآن) وفي ذلك الوقت كان على استعداد أن يحاكيه تماماً»[2].

---

(1) تشرنايف: النبي ومحاكاة القرآن، مصدر سابق، ص 51، نقلاً عن مالك صقور ص 50.

(2) ستراخوف: ملاحظات عن بوشكين وشعراء آخرين، موسكو سنة 1888 ص 48، كما ينقله عنه مالك صقور: بوشكين والقرآن ص 151.

والمقصود بالمحاكاة ها هنا هو الاقتباس من معانيه، لا معارضته. ويرى «أن طريقة القَسَمْ التي جاءت في القرآن والتي حاكاها بوشكين تحمل سرًّا، وتحتوي على قوة عجيبة مع التناغم الهارموني، كما أنها تحتوي على انسيابية شعرية مذهلة، وموسيقى عجائبية»[1].

وهؤلاء الكتاب هم من العصر القيصري الذي تمتع بحرية نسبية. أما في العهد البلشفي فإن الكتابات عن بوشكين وثوريته وتقدميته ازدادت بدون ريب، ولكن الجانب المضيء وتأثيرات القرآن اختفت أو كادت. بل بلغ العداء ببعضهم أن زعم أن بوشكين أراد محاكاة القرآن والتهكم به، مما دفع الباحثة الروسية كاشتاليفا إلى كتابة مقال سنة 1930 بعنوان «قصائد بوشكين قبسات من القرآن ومصدرها الأول» نفت فيه نفياً قاطعاً هذا الزعم الكاذب وقالت إن بوشكين حاول إبراز الجانب الديني والفلسفي للقرآن. وإن بوشكين كتب رسالة إلى أحد أصدقائه قائلاً: «إن القرآن هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي»[2].

(1) المصدر السابق.

(2) عبد الرحيم العطاوي: الاستشراق الروسي، مصدر سابق، ص 280 ـ 283.

لماذا اهتم بوشكين بالقرآن؟

تبرز مجموعة القصائد التسع «قبسات من القرآن» أو «محاكاة القرآن» كما ترجمها بعضهم كشاهد قوي على تأثر بوشكين الشديد بالقرآن الكريم في وقت مبكر من حياته، فقد أخرجها عام 1824 عندما كان لا يزال في القوقاس.

وبطبيعة الحال ليست هذه القصائد التسع هي الوحيدة التي تأثر فيها بوشكين بالقرآن الكريم والسيرة النبوية، بل هناك العديد من القصائد التي يبدو فيها هذا التأثير مثل قصيدته المشهورة «النبي» أو «الرسول» كما ترجمها بعضهم.

قال بعض الباحثين الروس إن اهتمام بوشكين بالقرآن كان مردُّه أسباباً شخصية، فجدّه إبراهيم هانيبال كان من المسلمين. وقد تلقَّى بوشكين في صغره تلك المعلومات الأولية عن جده وعن القرآن عن جدته لأمه ماريا إبراهيم هانيبال. وممن قال بذلك الباحثة **لوبيكوفا في كتابها «بوشكين والشرق»**[1] **والناقد جوكوفسكي (Gukovsky) في كتابه «بوشكين والرومانتيكيون**

(1) ن. لوبيكوفا: «بوشكين والشرق»، موسكو، 1974 ص 63، نقلاً عن مكارم الغمري: «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي» ص 144.

الروس»[1] **والباحثة كاشتاليفا** (Kashtaleva)[2]. ولا شك أن تأثر بوشكين بحكايات جدته ماريا عن جده لأمه إبراهيم هانيبال واحتفاظه بإسلامه سراً، كان من العوامل التي جعلت بوشكين يهتم بالقرآن ودراسته والبحث عنه.

ولكن ذلك ليس هو السبب الوحيد، بل ليس السبب الأول. وقد اعتمد بوشكين على ترجمة فيريفكين (Vervekin) التي ظهرت عام 1790 وهي مترجمة إلى الروسية عن اللغة الفرنسية، وبها كثير من الأخطاء، ولكنها أفضل دون شك عن سابقتها التي قام بها المترجم بوسنيكوف (Bosnikof)، والتي نقلها عن المترجم الفرنسي دي ريي (De Ryer). وهي ترجمة مليئة بالأخطاء كما يدل عليها عنوانها «القرآن عن محمد أو القانون التركي».

ورأى آخرون مثل **الناقد سلومينسكي** (Slominsky) «وجود تواز بين الموتيفات المستلهمة عن القرآن وملامح الظروف

---

(1) ج. جوكوفسكي: «بوشكين والرومانتيكيون الروس»، موسكو، 1965 ص 83، نقلاً عن مكارم الغمري، المصدر السابق.

(2) ك. كاشتاليفا: «قبسات من القرآن ومصادرها الأولى»، النشرة الدورية لزمالة المستشرقين، لينتجراد 1930 ج 5/ 247، نقلاً عن مكارم الغمري، المصدر السابق.

التاريخية الروسية»[1]. وهو يشير بذلك إلى ثورية القرآن وحياة الرسول في الثورة على الظلم الاجتماعي. وهو تفسير لا يستغرب في العهد البلشفي الشيوعي.

أما الناقد السوفييتي **براجينسكي** فقد قال: «إن تأمل بوشكين في القرآن كان فلسفياً، فقد لجأ إليه من أجل الوعي بدروس التاريخ ولخدمة الواقع... وأصبح القرآن مصدراً للتعبير عن الأفكار البطولية، والشجاعة الصلبة، والنضال المنكر للذات في الفترة التي سبقت حركة الديسمبريين»[2].

وهذا أيضاً تفسير لا يستغرب في العهد الشيوعي الاشتراكي. حيث اضطروا للاعتراف بأن القرآن كان باعثاً للمقاومة ضد الطغيان والظلم، ومثالاً للمقاومة البطولية والشجاعة الصلبة والنضال المنكر للذات... ثم جعلها في الفترة التي سبقت حركة الديسمبريين (ديسمبر 1825)... وكأنه يريد بذلك أن يقول إن الثورة الديسمبرية قد حلَّت محلَّ القرآن في التأثير على بوشكين. وبذلك انتهى التأثير الرومانتيكي للقرآن

(1) سلومينسكي: «فن بوشكين»، موسكو 1963 ص 142، نقلاً عن مكارم الغمري ص 144.

(2) براجينسكي: ملاحظات حول التركيبة الغربية الشرقية في الشعر الغنائي عند بوشكين. مجلة شعوب آسيا وإفريقيا، موسكو، 1965 عدد 4 ص 124، نقلاً عن مكارم الغمري ص 134.

على بوشكين. وهو تفسير معهود في أيام الشيوعية والبلشفية التي تحوّل كل شيء إلى النضال ضد الظلم الاجتماعي. وأفضل النقاد الروس في هذا الصدد هو **ستراخوف** الذي قال: «**إن القرآن، على ما يبدو، قادر على التأثير بقوة على الناس، وفي الوقت الحاضر تصنع روح هذا الكتاب انتصارات كبيرة في الهند والصين. وهو ينتصر هناك على الأديان القديمة للإنسانية**»[1].

فللقرآن العظيم تأثيرات روحية عظيمة. **وكما ذكر من قبل فإن أعظم تلك التأثيرات كانت مهابة الله وعظمة الله المتعلقتان بعقيدة الإسلام التوحيدية وصفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى كما ذكر تشرنايف**[2].

وهكذا نلاحظ أن توجهات الأدباء والنقاد الروس في العهد القيصري مثل **تشرنايف وستراخوف** هي أقرب إلى الحقيقة من ملاحظات النقاد الروس في العهد البلشفي من أمثال **جوكوفسكي وسلومينسكي** اللذين أرجعا ذلك إلى النضال ضد الظلم والاضطهاد والأسباب الاجتماعية.

---

(1) ستراخوف: «ملاحظات حول بوشكين وشعراء آخرين» كيف، 1897 ص 47 نقلاً عن مكارم الغمري ص 144.

(2) تشرنايف: النبي ومحاكاة القرآن، مصدر سابق، نقلاً عن مالك صقور ص 150.

وقد حاول الناقد **سولوفي** (Solovei) أن يجمع بين الأسباب الذاتية (كون جد بوشكين كان مسلماً) والأسباب الموضوعية باعتبار القرآن باعثاً على النضال ضد القيصر والطبقة الأرستقراطية والظلم الاجتماعي[1].

واعتبر بعض الباحثين من أمثال **جيرمونسكي** أن «قبسات من القرآن» لبوشكين امتداد لاتجاهه الرومانتيكي بينما يرى آخرون من أمثال **جوكوفسكي** أن القبسات من القرآن هي تدعيم للمنهج الواقعي عند بوشكين. واختار آخرون أن القبسات تمثل مرحلة انتقالية من الرومانتيكية إلى الواقعية في إنتاج بوشكين[2].

وقد أكد **جوكوفسكي وبيلكين** أن بوشكين التزم بالموضوعية في استلهام النصوص القرآنية، بينما ذكر آخرون من أمثال **لوبيكوفا وسالوفوي وتوماشيفسكي** بأن بوشكين استلهم القرآن ونصوصه بحرية فأضاف وحذف.

وعند قراءة القصائد التسع نجد أن بوشكين لم يلتزم بالنصّ المترجم، وإنما استلهم النصَّ، وأضاف إليه، أو حذف

(1) سولوفي: خصائص الاقتباس عن القرآن في «قبسات من القرآن لبوشكين» فصل في كتاب «بوشكين في الشرق» مصدر سابق، نقلاً عن مكارم الغمري ص 145.

(2) مكارم الغمري (مصدر سابق) ص 145.

(3) المصدر السابق ص 146.

منه، أو دمج نصوصاً متعدّدة من سور مختلفة في نصّ واحد، كما سنذكره بعد قليل. وهو أمر غير مستغرب، فبوشكين شاعر ملهم وهو غير مقيّد لا بترجمة ولا بنصّ واحد من القرآن، وإنما هو يستلهم المعاني من أكثر من سورة وقد يضيف إليها بعض مقاطع من السيرة. والواقع أن بوشكين كان موفقاً في ذلك رغم اعتماده على ترجمة فيريفكين المعتمدة على الترجمة الفرنسية التي قام بها دي ريي وهي ترجمة مليئة بالأخطاء.

وقد أشار بوشكين بنفسه إلى أحد أسباب اهتمامه بالقرآن الكريم وهو «أن الكثير من القيم الأخلاقية موجزة في القرآن في قوة وشاعرية»[1].

وقد درس بوشكين **كتابات جوته عن القرآن وكتابات شليجل** وكلاهما ألماني مهتم بالقرآن والإسلام. كما أن بوشكين عاش فترة أربع سنوات في القوقاس، وسمع القرآن الكريم يُتلى من أهل القوقاس أنفسهم. كما أن بوشكين تعرّف على بحّار مصري في ميناء أوديسا على البحر الأسود (تابعة لأوكرانيا حالياً) يدعى علي، وتوطدت بينهما الصداقة إلى درجة كبيرة. وللأسف لا توجد هناك كتابات توضح مدى تأثير البحار علي على بوشكين رغم تأكيد المصادر على وجود هذه الصداقة

(1) بوشكين: المؤلفات الكاملة ج 2/ 193 موسكو 1977.

حتى أن **قصيدة «من وحي العربي»** يقال إنها من تأثير جاذبية البحار علي[1].

قصيدة **من وحي العربي** وتماهي بوشكين مع العربي:

فتى جذاب، فتى دمث
لا تخجل مني فنحن أهل
وبداخلنا لهب عاصف
ونعيش حياة واحدة
لقد تآلفنا معاً
تماماً مثل جوزة مزدوجة
أسفل قشرة واحدة

متى صار بوشكين مع العربي من أسرة واحدة فهم أهل؟ وهم مثل جوزة مكونة من شقّين تجمعهما قشرة واحدة؛ إن هذا التآلف مع العربي غريب جداً. فهذا شخص روسي من طبقة النبلاء وقمة شعراء روسيا، ومع هذا يشعر بهذا التعاطف والمحبّة والمودة لهذا العربي، حتى يرى أنه توأم له. فمن أين أتى بوشكين بهذه العواطف الدافقة والصادقة نحو العربي في زمن ينظر فيه الأوربي إلى العربي نظرة احتقار وازدراء، حتى أن القواميس الأوربية بما فيها اللغة الروسية تجعل كلمة العربي

(1) مكارم الغمري: مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي ص 121.

Arab, Arap مرادفة للسوقي، والعبد، والحقير، والشرّير، وغير المتحضر، والهمجي. كما أن لفظة مورو التي أطلقها الأسبان والبرتغاليون على عرب أسبانيا وشمال إفريقيا تعني الأسود، العبد، المتخلف، الهمجي، غير المتحضر، وبما أن سكان شمال إفريقيا (المغرب والجزائر وتونس) الأصليين هم من البربر (أصولهم يمنية عربية هاجرت قبل الإسلام بعد تحطم سد مأرب) فإن كلمة البربر أصبحت تعني الهمجية والوحشية والتخلف لدرجة أننا نقلناها من اللغات الأوربية حين نتحدّث عن البربرية والهمجية!!

ربما نستطيع أن نفسِّر تعاطف بوشكين مع العربي بتأثره القوي بالقرآن الكريم، والقرآن عربي ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمَر: الآية 28] ، ومحبته له وإعجابه وإيمانه به... كما **أن إسلام جده إبراهيم هانيبال (الذي ظل يخفيه عن القياصرة والنبلاء) أثّر فيه**. وقد أعجب بوشكين **بالشرق وبالثقافة العربية والشعر العربي** تماماً كما أعجب بذلك مجموعة من أدباء أوربا وشعرائها مثل جوته وشيللر الألمانيين وموليير الفرنسي وبايرون الإنجليزي.

هذا بالإضافة **إلى معايشة أهل القوقاس المسلمين وسماعه القرآن منهم ليزداد إعجابه بهم وبالقرآن. كما أن صداقته للبحّار المصري علي لا بد أن يكون لها دور في هذه المودة والمحبة الجياشة**. فالقصيدة تدلّ على هذا الفيض من العواطف الفوارة

الصادقة لدرجة أنه يعتبر نفسه توأماً وصنواً للعربي كفلقتي الجوزة التي تجمعهما قشرة واحدة.

قصيدة «تركتني ليلى» والتأثيرات العربية

ونجد الاهتمام بالعربي حين يطلق على **محبوبته اسم ليلى** ففي قصيدة «**تركتني ليلى**» نجد أصداء الثقافة العربية حين تهجر ليلى الشيخ المتصابي وتبتعد عنه باحثة عن الشباب.

يقول بوشكين:

تركتني ليلى مساء دون اكتراث
قلت: توقّفي إلى أين؟
فعارضتني: رأسك أشيب
قلت للمتهكمة المتعالية:
لكلٍّ أوانه
فالذي كان مسكا حالكاً
صار الآن كافوراً
لكن ليلى سخرت
من الحديث الفاشل
وقالت: أنت تعلم أن المسك حلو لحديثي الزواج
أما الكافور فيلزم النعوش

وبوشكين عندما قال هذه القصيدة كان لا يزال في أوج شبابه.

نافورة باختشي سراي

وفي قصته الشعرية «**نافورة باختشي سراي**» تقوم زاريما الجورجية، زوجة الخان كريم كري (جيري) الذي ترك زوجته وتدلّه في حب الأميرة البولندية الأسيرة ماريا، تقوم زاريما بالذهاب إلى ماريا، وتستحلفها بالقرآن وبالرسول بعد أن تستحلفها بالله أن تترك لها زوجها الحبيب الخان كريم كراي الذي من أجله تركت دينها المسيحي. ولكن ماريا لا تحفل بها ولا بالخان، وإنما تريد أن تعود إلى وطنها، فتذكّرها زاريما بأن كلاهما كان نصرانياً فإذا لم ترحمها ماريا بالدين الجديد فلترحمها بالدين القديم.

يقول **بوشكين** على لسان زاريما الجورجية للأميرة البولندية ماريا:

أتركي لي جيري إنه لي
فما زالت قبلاته تلهبني
وأقسم بأغلظ الأيمان
لقد شاركني الأحلام والأماني
وخيانته تقتلني

* * *

إنني أبكي، هل ترين
وأركع قدّامك

أتوسّل إليك
أعطني السعادة والطمأنينة
أعطني (جيري) السابق ولا تعارضي
هو لي. لكنه هائم بك، اتركيه
بحق القرآن وشفاعته، اتركيه
لأن عبوديتي للخان
أنستني عقيدتي السابقة
لكن عقيدة أمي هي عقيدتك
أستحلفك بها، أنا زاريما
أن تعيدي لي «جيري»
ولكن اسمعي
إذا كان عليّ أن أُقدِّم الخنجر
فهو عندي
فأنا مولودة في القفقاس

وماريا مشغولة عنها وعن توسلاتها فهي لا تريد الخان بل تريد وطنها. فتحثها زاريما على أن تفعل أي شيء لكي تبعد عنها حب الخان المجنون بها. وتعترف زاريما أن ماريا أيضاً غارقة في حزنها ولا تأبه بالخان ولا تدلّهه في حبها. وتذهب زاريما خلسة كما جاءت خلسة حتى لا يراها الطواشي (حارس الحريم).

الذهاب إلى مكة

وتغرق زاريما في حزنها وتتذكر مآثر الحج، فيقول بوشكين معبراً عن رغبته الدفينة في الحج وفي أن يموت وهو يشاهد الكعبة المشرفة.

تهبُ السماء للإنسان
عوضاً عن الدموع والبلاء الدائم
فالناسك الناظر إلى مكة سعيد
في سنوات الشيخوخة الحزينة

الذهاب إلى المدينة وبوشكين عاشق للرسول

ويتحدث عن الليالي الفاخرة للشرق، ولكن حبّه للرسول ﷺ يتحوّل إلى عشق. يقول بوشكين:

كم هي جذابة الزينة المبهمة
لليالي الشرق الفاخرة
كيف تنساب الساعات
أمام عشاق الرسول!!

في المنظر الأول نرى الناسك السعيد وهو في مكة ينظر إلى الكعبة فتذهب عنه الدموع والبلاء الدائم. وفي المنظر الثاني ينتقل الشاعر إلى المدينة المنورة أمام قبر الرسول:

كيف تنساب الساعات

أمام عشاق الرسول

لقد تحول بوشكين من معجب بالقرآن والرسول محمد ﷺ إلى عاشق للرسول ﷺ. وهي درجة تفوق درجة الدخول في الإسلام، بل وتفوق درجة الإيمان بهذا الدين العظيم وقرآنه الكريم... إنها درجة أعلى من ذلك وأسمى... إنها درجة المحبّة التي تصل إلى مستوى عشّاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

كم نحن محتاجون في هذا الزمن النكد الذي بلغت فيه الوقاحة بأهل أوربا إلى مستوى منحدر منحط في سبِّ الرسول الكريم، كم نحن وهم محتاجون إلى أبيات بوشكين، وشعر بوشكين الذي يهيم بحبِّ محمد ﷺ.

كم نحن محتاجون لنشر أشعار جوته وموليير وبوشكين وليرمنتوف التي تمدح الإسلام والقرآن وتتغنّى بهما، وتهيم حُبًّا بالمصطفى ﷺ إلى درجة العشق والهيام.

وهو جزء هام من الدعوة إلى الإسلام والرد على الافتراءات، وخاصة أن أهل أوربا والغرب عامة يعتبرون هذه الأسماء اللامعة في سماء الأدب والشعر نجوماً يهتدى بها، فما علينا إلا بذل الجهد، وإخراج هذه الكنوز، وإظهارها في قوالب شيّقة، مع إيجاد برامج تليفزيونية حيّة يقدّمها أدباء وعلماء من

أهل تلك البلاد بلغاتهم المختلفة. والبذل في هذا الميدان جهاد، وهو لا شك من مصارف الزكاة، ويعتبر جزءاً هاماً في تأليف القلوب وتقريبها إلى الإسلام ورسول الإسلام وكتاب الإسلام، وهذا هو نصيب «المؤلفة قلوبهم». بل لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن هذا مما يدفع به الأذى عن المسلمين، ويرفع به عن كاهلهم تُهم الإرهاب والهمجية والتخلف والتعصب... وهي والله، صفات أكثرهم في تاريخهم الطويل الذي حاربوا فيه أنوار الإسلام ونور محمد ﷺ في حروبهم الصليبيّة وحروب الاستعمار.

قصيدة أخرى من وحي العربي

وقد أعجب بوشكين كما قلنا بالعرب وشعرهم وقرآنهم ونبيّهم، وسمى معشوقته ليلى، وجعل نفسه توأماً للعربي في قصيدته **من وحي العربي**. وفي الحفلات التنكرية التي كانت تقام في صالونات الطبقة الأرستقراطية تنكّر بوشكين في زيٍّ عربي. وكان ذلك الزيُّ أكثر الأزياء إثارة في ذلك الحفل التنكُّري[1].

وقد أنشد في تلك الليلة قصيدته الرائعة **من وحي العربي**

(1) شتورم: «أصداء الماضي»؛ مجلة نوفي مير (العالم الجديد)، موسكو عام 1957 العدد 3 ص 272 ـ 276 نقلاً عن مكارم الغمري ص 91.

ويختار بالذات مصر:

تحت سماء إفريقيا ولدت
وعشقت الحياة في مصر
لكني هنا مفتون بكِ
ونسيت وطني وكل كنوز الأرض
ومداركي الرائعة
أهبها لعينيك الزرقاوين
وخصلات شعركِ الصفراء المتموّجة

«روسلان ولودميلا» وتأثرها بألف ليلة وليلة

وفي «رسلان ولودميلا» القصة الشعرية المتأثرة بقصة «المارد والصبية» وقصة «أبي محمد الكسلان» في مجموعة أقاصيص «ألف ليلة وليلة» نجد الحكيم الشائب يتنبأ لرسلان بزوال الكرب ويقول له:

رسلان، لقد فقدت لودميلا
إن روحك الصامدة تفقد قوتها
لكن الشرَّ سيزول في لمح البصر
فالضيم يدركك إلى حين ثم يزول
أقدمْ على كل شيء، ولا تحزنْ
في أمل وإيمان ومرح

وهو نفس ما سمعه محمد الكسلان بعد عناء البحث عن

عروسه المخطوفة:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغيّر الله من حال إلى حال
يا مسلماً إمامه القرآن أبشرْ قد جاءك الأمانْ
ولا تخفْ ما سوَّلَ الشيطانْ فنحن قوم ديننا الإيمانْ

والقصة تعبق بروح الأساطير العربية وخاتم سليمان والجن، والقوة الخيّرة التي تتغلب على قوى الشر المتمثل في المارد الشيطان الذي خطف لودميلا قبل أن تتزوج حبيبها رسلان. وكيف استطاع رسلان بعد مغامرات وجهد جهيد أن يتغلب على ذلك المارد ويقتلع لحيته التي تتمثل فيها قوته (مثل قصة شمشون الذي تتمثل في شعر رأسه).

ويتحدث بوشكين عن شهرزاد وعن مسرور «العبد حامل النور» في قصص «ألف ليلة وليلة»، كما يعجب بقصة هارون الرشيد في قصص ألف ليلة وليلة، وكيف كان يتفقّد الرعيّة فيذهب متنكّراً بلباس التجار مع وزيره جعفر البرمكي. وقد استرعى اهتمام بوشكين هذا الخليفة الذي يهتمُّ بمشاكل شعبه ويتفقد أمورهم بنفسه. وقد جعل قصة هارون الرشيد هذه «حكاية هارون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري» عماد قصيدته وقصته الشعرية «أندجيلو»، وهي حكاية حاكم في إيطاليا يقوم بنفس ما قام به هارون الرشيد، وهي توضح توجهات بوشكين، ومطالبته القيصر الروسي بأن يقتدي بهؤلاء وأن يرعى شعبه بنفسه.

وفي **قصيدة «التعويذة» أو «الرقية» أو «الطلسم»** يتخيل بوشكين أن حبيبته أعطته تعويذة تحميه من جروح القلب الجديدة، ومن الخيانة، ومن نسيان حبّه لها إذا قابلته عيون جميلة فاتنة غادرة. ولكن تعويذتها لن تمنع عنه الأمراض أو الموت أو العواصف أو تقلبات الزمن.

لنستمع لهذه القصيدة العجيبة (الترجمة لمكارم الغمري):

هناك، حيث البحر دائماً يرتّ
على الصخور المقفرة
حيث القمر يتألق أكثر دفئاً
في الساعة الحلوة في ظلام الليل
حيث يقضي المسلم أيامه
مستمتعاً مع الحريم
هناك ساحرة بدعابة
أعطتني تعويذة
كانت تقول وهي تلاطفني:
حافظ على تعويذتي
ففيها قوة سحريّة!!
ستمنحك الحبّ،
أما من العِلّة، ومن القبر،
في العاصفة، في الزوبعة المريعة

رأسك يا عزيزي
لن تنقذها تعويذتي

* * *

وثروات الشرق
لن تهبها لك،
وعشاق النبي
لن تخضعهم لك،
وإلى حضن الصديق
من البلاد الحزينة الغريبة
إلى ناحية الوطن إلى الشمال من الجنوب
لن تنطلق بك تعويذتي

* * *

لكن إذا سحرتك عيون غادرة فجأة
أو شفتان في ظلمة الليل قبَّلتك من دون حب
فيا عزيزي!! من الجريمة،
ومن جروح القلب الجديدة،
ومن الخيانة والنسيان،
سوف تحميك تعويذتي.

وهي قصيدة عجيبة تحتاج إلى شاعر ملهم كي ينقلها إلى العربية. ويلفت نظرنا قوله: «**وعشّاق النبي لن تخضعهم لك**».

أي أن تعويذتها لن تخضع له (**عُشَّاق النبي**). وإصرار بوشكين على إيراد (**عشاق النبي**) في هذا المقام يدلُّ على مدى تأثره ومحبته للنبي محمد ﷺ، وإلا فالمقام لا يشي بإيراد عُشّاق النبي ها هنا. ولكنها المحبّة والتأثر تدعوان بوشكين إلى إيراد عشاق النبي في كثير من قصائده.

وقد ترجم هذه القصيدة د. طارق مردود في كتاب نشر بعنوان «القصائد الشرقية» لاسكندر بوشكين منشورات دار علاء الدين ـ دمشق، ويبدو لي أن ترجمته أفضل من ترجمة الدكتورة مكارم الغمري. ومع هذا فلا تزال قصائد بوشكين تحتاج إلى شاعر فحل ينقلها بجمالها إلى اللغة العربية البديعة.

قصيدة اسطمبول ونقده لها لبعدها عن الإسلام الحقّ

ومما يثير انتباهنا نقد بوشكين لاسطمبول وسلاطينها وابتعادهم عن القرآن وانغماسهم في الشراب المحرم. وهو أمر مثير للدهشة تماماً. وقد قال بوشكين هذه القصيدة عندما ذهب إلى «أرضروم» [أرض الروم] وهي مدينة تركية غزاها الجيش الروسي، وكان بوشكين مرافقاً لهذا الجيش عام 1829.

كتب بوشكين هذه القصيدة على لسان الجندي التركي الانكشاري «**أمين أوغلو**». وقد ظهرت القصيدة بعنوان «رحلة إلى أرضروم» عام 1835 وهي كالآتي (حسب ترجمة د. طارق مردود):

اسطمبول

سابقاً مجَّدَ الكفار اسطمبول
لكنهم سيسحقونها غداً
بكعب حديدي مثل أفعى هاجعة
ويمضون جانباً، ويتركونها، هكذا
نامت إسطمبول قبل الفاجعة

* * *

تنكّرت اسطمبول للنبيّ
فيه صِدقُ الشرق القديم
عكَّره الغرب الماكر
اسطمبول لأجل ملذّات الرذيلة
غيّرت السيف والدماء
تنكّرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة

* * *

عندها خبا شعاع العقيدة الساطع
أصبحت النساء في الأسواق تمشي
ويتسكع الكهول في زوايا الشوارع
وتردد الرجال على الحريم
حيث ينام الطواشي[1] المرتشي

---

(1) الطواشي: حارس النساء وهو عبد مخصي.

ولكن ليست هكذا أرضروم الجبلية
أرضرومنا الغالية جداً
لا ننام نحن في رغد العار
ولا نغرف أكواب العصاة
في أثر الفساد ضجيج ونار

* * *

نصوم نحن، ووحدها النوافير
بتيار منعشٍ تُغنّي
فرساننا في المعركة يندفعون
بزخم صاخب ورشاقة
نحن على النساء، مثل الصقور، غيورون
حريمنا ساكن
يبقى بدون انتهاك

* * *

الله أكبر
إلينا من اسطمبول
جاء انكشاري متعسّف
عندها عصفت بنا في وهدة زوبعة
وسقطت صاعقة صمّاء

من روشوك[1] إلى سميرنا[1] العتيقة
من ترابزند[1] إلى تولشي[1]
سار يحشد الجلادون
مستدعين الكلاب إلى الصيد السمين
تداعت بيوت الانكشاريين
مفرقعة في أحضان الحرائق
تراءت الأسنان المدمّاة
في كل مكان، اندكَّتْ الملاجىء
اسودَّتْ الأموات المبهوتة
متلوّية على الأطواق.
الله أكبر ـ عندها كان السلطان
شاملاً روح الطغيان.

هذه القصيدة تحتاج إلى دراسة متأنية، ففيها توجهات إسلامية صريحة وقوية، كما أن فيها نقداً للطغيان، والانحراف عن دين الله والترف والمجون، وأن ذلك يؤدي إلى السقوط ليس في حمأة الرذيلة فقط، بل وتحت سنابك خيل الأعداء. ولم يكتفِ بوشكين بذلك ولكنه على لسان الجندي التركي الطيب «أمين أوغلو» ينتقد بشدة طغيان السلطان وجيشه. والكلام كما يقول الباحثون الروس في أدب بوشكين وشعره

(1) أسماء مدن تركية وترابزند هي طرابزون.

موجَّهٌ أيضاً للقيصر، وإن بوشكين تخفّى وراء شخصية «أمين أوغلو» لينجو من الرقابة.

وقد ترجم مالك صقور في كتابه «بوشكين والقرآن» مقطعاً من هذه القصيدة:

تمجّد اسطنبول الكافرين الآن
لكنها ستسحق غداً
كما الأفعى النائمة ستدهس
ويمضون بالقرب منها، تاركيها بحالها
لقد نعست اسطنبول قبل المعركة

* * *

اسطنبول انحرفت عن طريق النبي
وحقيقة الشرق القديم فيها
عكّرها الغرب المخادع
انغمست بالملذات .
غيّرت الابتهالات وخانت السيف
أقلعت اسطنبول عن المعركة
وصارت تشرب الخمرة
في أوقات الصلاة.

نبذة عن الدولة العثمانية ومعاركها مع روسيا

لقد كانت الدولة العثمانية قوة للإسلام في أوربا، وكانت الروح الجهادية تسيطر على سلاطينها وجيشها. واستطاع محمد

الفاتح أن يفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام 1453 والتي استعصت على المسلمين منذ أن أرسل معاوية بن أبي سفيان والي عثمان رضي الله عنه على الشام جيشاً لفتحها، فيه أبو أيوب الأنصاري من بني النجار. وقد استشهد أبو أيوب رضي الله عنه في تلك الغزوة. وكان قد أوصى بأن يدفن جثمانه على سورها أو بالقرب منه. ومسجده اليوم في منطقة شعبية في اسطمبول تعرف باسم «حزرت أيوب» وهي تشبه تماماً حي السيدة زينب وحي الحسين بالقاهرة... وقد أعاد السلطان محمد الفاتح اكتشاف قبر أبي أيوب عند فتح القسطنطينية وبنى مسجداً بالقرب منه. وكان السلاطين من آل عثمان ينصّبون فيه.

ثم توالت الفتوحات، واستطاع السلطان سليمان القانوني أن يهدد فيينّا. وخضعت معظم دول أوربا الشرقية للحكم العثماني، وخاصة منطقة البلقان. وتوددت دول أوربا الأخرى إلى السلطان العثماني وتمت المصاهرة، وتوسعت آفاق التجارة، ولكن نظام الحكم المبني على التوريث أدى إلى صراع بين أبناء السلطان. وكانت كل زوجة من زوجات السلطان تحرص على أن يتولى ابنها الحكم، وخاصة إذا كانت أثيرة لديه، ولو كان لابنها أخوة أكبر منه وأكثر خبرة في شؤون الحكم وإدارة دفة الدولة، فأدّى ذلك إلى التصدّع مع مرور الزمن وإلى القتال بين الأخوة، وإلى انتشار الفساد، وتدخل

حريم السلطان في الدولة وتأثيرهن عليه حتى فسدت الأمور. ومع وجود الترف وزيادته بعدت اسطمبول عن تعاليم محمد ﷺ النقيّة... وتربَّص الأوربيون بها ومكروا بها وتآمروا عليها. وكان أشدّهم حرباً لها دولة القياصرة في روسيا لأنهم اعتبروا أنفسهم الوريث لاسطمبول (القسطنطينية) عاصمة الدولة البيزنطية الأرثوذكسية. ومنذ فترة مبكرة من تاريخها كان إيفان الرهيب يسعى إلى اجتثاث الحكم الإسلامي، ليس فقط على نهر الفولجا وجبال البشكير كما فعل، بل كان يتوق إلى الوصول إلى البحر الأسود وإلى بحر قزوين وإلى القسطنطينية ليحرّرها من حكم الكفرة الطغاة البرابرة حسب وصفه وظنه.

وقد سعى كل خلفاء إيفان الرهيب إلى التوسع في أرض المسلمين والوصول إلى المياه الدافئة والدردنيل. وكان أكثرهم تصميماً على ذلك بطرس الأكبر الذي كانوا يلقبونه بالعظيم (1689 ـ 1725). وباءت محاولات بطرس بالاستيلاء على المياه الدافئة في القرم والبحر الأسود والقوقاز بالفشل بعد معارك ضارية، ولكن خلفاءه استطاعوا أن يحقّقوا الانتصار تلو الانتصار ضد الدولة العثمانية، واستطاعت كاثرين الثانية أن تستولي على القرم سنة 1783 ومناطق من القوقاس وشمال البحر الأسود. وما أن اقترب القرن الثامن عشر الميلادي من نهايته حتى كانت روسيا القيصرية تستولي على كثير من أراضي

الدولة العثمانية في القوقاز والقرم والبحر الأسود ومناطق من البلقان. وحققت اتفاقية كوشوك ـ كانارجي عام 1774 لروسيا الاستيلاء على القرم، كما حققت معاهدة جاسي عام 1792 التدخل في شؤون البلقان الذي كانت تحكمه تركيا.

وبحلول القرن التاسع عشر الميلادي ازدادت تلك الهجمات من روسيا والدول الأوربية. واتضح أن الدولة العثمانية تعاني من الهرم والشيخوخة والترف والانقسامات الداخلية، وفساد نظام الحكم... وكانت المحاولات الماكرة من أوربا في التحديث ومساعدة الأتراك مجرد خداع، ومحاولات للتأثير على الدولة ومعرفة أسرارها وابتلاعها في مرحلة تالية. وبدأ نظام الامتيازات للدول الأجنبية ينخر في نظام الدولة، ويسبب العديد من المشاكل.

والغريب حقاً أن يقف بوشكين الوطني الغيور ضد هذه الاتجاهات الأوربية والروسية لابتلاع دولة الخلافة. وقد شخَّص بوشكين السبب في هذا الضعف وهو ابتعاد دولة الخلافة عن تعاليم الرسول محمد ﷺ الحقة، وتفشّي الظلم، والانغماس في الملذات والشهوات، وانتشار الترف وترك الجهاد: «أقلعت اسطمبول عن المعركة وصارت تشرب الخمر في أوقات الصلاة».

ألا يبدو بوشكين في هذا النقد الحاد لاسطمبول إسلامياً

أكثر من المسلمين ومخلصاً لدولة الخلافة أكثر من أبنائها؟ أليس هذا غريباً من روسي يحبُّ وطنه حُبًّا جمًّا، ويخلص له، ولكنه في نفس الوقت يندفع بسبب حبّه للإسلام لتنبيه الغافلين إلى مؤامرات الأوربيين على هذه الدولة الإسلامية التي نخر فيها الفساد. ويحذّرهم أشد التحذير من مخالفة تعاليم الإسلام، ونبيّ الإسلام، وكتاب الإسلام. ويدعوهم إلى التمسك بشريعة الإسلام ونبذ الخلافات والبعد عن الموبقات وشرب الخمور والترف والفجور والالتجاء إلى الله وحمل السيف للجهاد.

نعم إنه أمر غريب أن يدعو المسلمين للجهاد، فالدولة العثمانية هي في نظر الروس ألدُّ الأعداء، ويجب إزالتها لأنها أزالت الدولة البيزنطية حامية الأرثوذكسية التي تدين بها روسيا.

بوشكين يدعو اسطمبول لرفع راية الجهاد

إنني لم أر أحداً ممن كتب عن بوشكين تناول هذه القضية. كيف يمكن لبوشكين الوطني الغيور أن يدعو دولة الخلافة لرفع راية الجهاد ضد روسيا القيصرية ودول أوربا المخادعة المخاتلة التي تريد سحق دولة الخلافة كما يريد المرء سحق رأس أفعى نائمة هاجعة:

سابقاً مجَّد الكفار اسطمبول

وذلك عندما كانت دولة قوية فتيّة فتحت أوربا ووصلت

جيوشها إلى أبواب ڤيينا عاصمة النمسا:

لكنهم سيسحقونها غداً
(عندما تتاح لهم الفرصة)
بكعب حديدي مثل أفعى هاجعة
ويمضون جانباً ويتركونها،
هكذا نامت اسطمبول قبل الفاجعة

وهو وصف دقيق لمؤامرات أوربا... لقد سمّاهم بوشكين الكفار الذين يريدون سحق اسطمبول رغم ما يبذلونه لها من معسول الكلام، وسيسحقونها بأقدامهم الحديدية كما تُسحق الأفعى النائمة، وواأسفاه، لقد نامت اسطمبول قبل الفاجعة.

لا يقول هذا الكلام إلا مسلم عميق الإيمان، بلغ به إيمانه أن يعتبر أهله وبلده وبلدان أوربا كلها كفاراً يتآمرون على مدينة الإسلام. ومدينة الإسلام نائمة تحلم بالحريم والحرير وتعيش حياة الترف والفجور:

تنكّرت اسطمبول للنبي
اسطمبول لأجل ملذّات الرذيلة
غيّرت السيف والدعاء
تنكّرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة

إنه نقد لاذع لاسطمبول التي تنكّرت لتعاليم النبي الكريم

لأجل ملذات الرذيلة، وتركت أهم عاملين في بقاء الأمة الإسلامية: السيف والدعاء... تركت الجهاد وتنكّرت لمبادئها. والغلبة على الأعداء لا تكون إلا بالدعاء والالتجاء إلى الله والصبر والمصابرة، والجهاد في سبيل الله. كان عمر رضي الله عنه يوصي جنوده الذاهبين للجهاد بأن يبتعدوا عن الذنوب صغائرها وكبائرها، ولا يقولوا عدونا شرٌّ منا، فإن الله يسلِّطُ على من عصاه من هو شرٌّ منه. وكان رضي الله عنه أخوف ما يكون على جنده من هذه الذنوب... وأما العدو فمهما بلغت قوته وجبروته فإن الله خاذله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية 249].

والظلم يؤدي إلى الذلة، وخيانة العهد تؤدي إلى تسلط الأعداء. والانغماس في الشهوات يؤدي إلى ضياع الأمة:

تنكرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة
عندها خبا شعاع العقيدة الساطع
أصبحت النساء في الأسواق تمشي
ويتسكع الكهول في زوايا الشوارع
وتردّد الرجال على الحريم
حيث ينام الطواشي المرتشي

أليست هذه الصورة البشعة لاسطمبول هي السبب في انهيار هذه الدولة العظيمة؟ بلى والله. وقد تنبّه بوشكين لهذه الفاجعة قبل وقوعها، ونبّه المسلمين إليها... ولكن صوته ضاع في وسط الطبول والأغاني... والمخمورون لا يفيقون...

أليست هذه الصورة لاسطمبول هي صورة عواصم دول الإسلام اليوم؟؟، كلها لاهية لاهثة وراء شهواتها...

اسطمبول لأجل ملذات الرذيلة
غيّرت السيف والدعاء
وتنكّرت اسطمبول لعرق الجهاد
وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة

وبالفعل خبا شعاع العقيدة الساطع، ليس في اسطمبول فحسب منذ ما يقرب منذ مائتي عام، بل خبا شعاع العقيدة في كافة أرجاء بلاد الإسلام. أنظر إلى النساء في الأسواق تمشي... ويتسكع الكهول في زوايا الشوارع.

أليس هذا هو الواقع اليوم في بلاد المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، والفتنة بين الرجال والنساء تذكيها أجهزة الإعلام، ومسلسلات الحب والغرام، وتحوّل الرجال إلى ديوثين يرضون بالخنا والعار في بيوتهم...

... يجب أن تموت الضمائر وتستخذي الرجولة.

لله درك يا بوشكين... يا من رفعت عقيرتك منادياً عاصمة الإسلام اسطمبول لتعود إلى دينها، وتتمسك بعقيدتها، وترفع راية الجهاد، فالكفار لا يريدون لها إلا الشّر ويخدعونها بمعسول الكلام... وأحذيتهم الحديديّة تريد أن تسحق الرؤوس النائمة الهاجعة!!

يا ويلهم!! رؤوس مخمورة، والشهوات والترف يقتلان الأمة، والفساد ينخر فيها... الكذب والغش والخداع والخيانة والرشوة والدياثة... والخداع مستمر، وهكذا تتحول الرذيلة في أجهزة الإعلام الماكرة إلى فضيلة، والكذب إلى صدق، والباطل إلى حق، والخور والجبن إلى حكمة وتعقّل، والجهاد إلى إرهاب وتمرد... وإسرائيل تعربد في أرض فلسطين وأرض المسلمين.

لله درّك يا بوشكين... يا من شخّصت الداء مبكراً (كتب بوشكين هذه القصيدة عام 1829 ونشرها عام 1835) أي منذ مائة وثمانين عاماً. ولم يكتف بوشكين بوصف الداء، ولكنه أيضاً وصف الدواء، ودعا إلى إذكاء شعاع العقيدة في النفوس، وعودة الطهر والنقاء، وكثرة الصلاة والدعاء، والالتزام بالعدل والصدق والوفاء.

والعودة إلى الجهاد، جهاد النفس وجهاد السيف، مع الإخبات والإنابة وكثرة الدعاء، وخاصة في أوقات الإجابة،

عند السجود، وعند الإقامة، وفي آخر الليل البهيم حين تنزل الرحمات وتستجاب الدعوات. وفي الأماكن والأوقات الشريفة، في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة... وفي المساجد عامة... وفي أيام الجمع ورمضان والأعياد والأوقات الفاضلة.

إن تكرار بوشكين لهذه الدعوة الإسلامية الجهادية واستخدامه المصطلحات الإسلامية، الله أكبر مراراً، يجعلنا نتيقّن من إسلام بوشكين وإيمانه العميق بالله إلى درجة وصل فيها إلى وصف قومه وأهله بالكفار، وأنهم يمكرون بالمسلمين، والمسلمون عنهم غافلون سادرون في غيّهم وضلالهم، وبعدهم عن الدين.

إن هذه القصيدة مع قصائد بوشكين الأخرى التي أشادت بالقرآن وعرضت نماذج من معانيه في أسلوب شعري جميل يردّده كل من سمعه أو قرأه في لغته الأصلية... ومحبة الرسول محمد ﷺ حتى يسمي محبّيه «عشاق الرسول»، ووصفه لبدء الوحي وقصيدته الرائعة «النبي» أو «الرسول»، لدليل على عمق إيمان بوشكين وتصديقه للإسلام والقرآن.

إن قصائد بوشكين العديدة التي فيها ذكر للرسول والإسلام والقرآن تحتاج إلى شاعر فحل يعيد صياغتها باللغة العربية. وما قدّمه المترجمون من عمل وجهد رائع يستحقون

عليه الأجر والمثوبة من الله سبحانه وتعالى ومنّا الثناء. ولكننا نطمع في المزيد وفي أشعار راقية تترجم ما كابده عاشق الرسول بوشكين.

والغريب حقاً أن بوشكين لم يقرأ إلا ترجمة فيريفكين عن ترجمة فرنسية رديئة قام بها المستشرق دي ريي عام 1647 حيث كان عنوانها «القرآن عن محمد أو القانون التركي» وهو عنوان يدلُّ، كما قال المستشرق الروسي الكبير كراتشكوفسكي، على عدم فهم للقرآن، وهي ترجمة مليئة بالأخطاء. ورغم أن فيريفكين قد حسّن ترجمة سلفه بوسنيكوف (عام 1716) وجعل لها أسلوباً أفضل، إلا أن الأخطاء بقيت كما هي. فكيف بالله لو استطاع بوشكين أن يقرأ القرآن كما أنزل ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمَر: الآية 28].

دراسة بوشكين للإسلام واهتمامه بحافظ والسعدي

لقد حاول بوشكين جهده أن يفهم القرآن، وسمع تلاوته من أهل القوقاس المسلمين عندما نفاه القيصر إلى بلادهم، وقرأ كل ما وجده من كتب عن الرسول وعن القرآن، وحضر المحاضرات التي يلقيها المختصّون الروس عن الحضارة الإسلامية، ومن ذلك حضوره لمحاضرة عن المأمون وعصره ألقاها تلميذه الأديب النابغة جوجول الذي خرج من معطفه (له رواية المعطف) كل الروايات الأدبية الروسية المشهورة، وقرأ كتاب كايدانوف «أسس التاريخ السياسي العام» وخاصة الجزء

الأول الذي خصَّص جزءاً كبيراً منه للحديث عن البلاد العربية وعن الإسلام ورسوله.

وقرأ الشاعر حافظ الشيرازي والشاعر سعدي وهما شاعران صوفيان من إيران السنيّة كتبا شعرهما بالفارسية والعربية، وقد قرأهما مترجمان إلى الروسية، كما فعل جوته عندما التحم بحافظ الشيرازي بعد أن قرأ ديوانه مترجماً إلى الألمانية.

وقد كتب بوشكين قصيدة بعنوان «سعدي» وهي مهداة إلى الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي الذي قيل إنه ذهب إلى جزيرة القرم (في القرن الثالث عشر الميلادي) وأنشد قصائده الجميلة لخان القرم. وقد أنشد بوشكين قصيدته مشيراً إلى ما قدمه سعدي في القرم من قصائد جميلة.

يقول بوشكين في **قصيدة «سعدي»**[1]:

في البرودة اللذيذة للنوافير
والجدران المنتشرة في الجوار
تصادف للشاعر أن يرفّه عن الخانات
بدرر الشعر المجلجلة

* * *

(1) ترجمة طارق مردود: القصائد الشرقية ألكسندر بوشكين، منشورات دار علاء الدين، دمشق 1999 ص 51، 52.

على خيوط الفرح الاحتفالي
نظم بيد بارعة
قلادة المديح المكشوف
ومسبحة الحكمة الذهبية

* * *

أحبَّ القرم أبناء سعدي
حيث أبدع هنا يوماً
فصيحُ الشرق دفاتره
وأدهش بغجة سراي[1]

* * *

انتشرت حكاياه
مثل سجاجيد يرفان[2]
وقد زيّنتها بسطوع
أثقال ولائم الخان

* * *

لكن ولا ساحر واحد بارع
صاحب مواهب ذكيّة

---

(1) بغجة سراي: هي عاصمة القرم الجميلة مبنية على الطراز العثماني. وقد أبدع بوشكين فيها ملحمته: نافورة الدموع (نافورة باختشي سراي) التي سبق ذكرها.

(2) يرفان هي عاصمة أرمينية. وقد اشتهرت في ذلك الزمان بصناعة السجاجيد.

قد ابتدع بهذه القوة
بمهارة، هكذا، الحكايا والأشعار

* * *

كشاعر فطن ومأثور
من تلك النواحي العجيبة
حيث الرجال شعث قساة
والنساء مثل الحوريات

ونرى بوشكين هنا يصف الرجال بأنهم مقاتلون أشداء شعث قساة، أما النساء فهن مثل الحوريات جمالاً ورقة ودماثة. ورغم أن بوشكين ذكر في أكثر من قصيدة شدّة الرجال في القوقاس والقرم إلا أنه في قصائد كثيرة ذكر فضائلهم العديدة ومنها الشجاعة والكرم والبساطة.

ولنا ملاحظة، وهي أن هذه المناطق من القوقاس إلى القرم والبحر الأسود كانت تتكلم لغات عدة، ولكنها جميعاً كانت تجتمع تحت راية القرآن، ولذا فإن لغة القرآن كانت سائدة، وخاصة لدى علماء الدين والمثقفين، كما كانت اللغة الفارسية منتشرة من بخارى وسمرقند عبر أفغانستان والهند إلى القوقاس والقرم والبحر الأسود فتركيا. وكان سلاطين الدولة العثمانية يدرسون اللغة العربية واللغة الفارسية إلى جانب دراستهم للّغة التركية. بل كانت لغة العلم هي اللغة العربية،

ولغة الأدب والشعر لديهم هي اللغة الفارسية. وبذلك كانت للعالم الإسلامي وحدة ثقافية تم تحطيمها في عهد الاستعمار، واستمرت إلى يومنا هذا.

ويتحدّث بوشكين عن **«حافظ الشيرازي»** كما تحدّث عن **«السعدي»**. ففي قصيدة: **«من حافظ»** يقول بوشكين: **«مخيم على نهر الفرات»** والتي ترجمها د. طارق مردود:

لا تفتتن بالمجد الوضيع
أيها الفتى الوسيم
لا تلق بنفسك في المعركة الدموية
مع جمهور القره باخ
أعرف أن الموت لن يصيبك
سوف يلحظ جمالك
وسوف يشفق عليه
ولكنني أخشى أنك ستفقد
بين المعارك للأبد
تواضع الخطوات الوجلة
هناء النعيم والحياء.

وهنا ملاحظة، أن المعارك قد اشتدت بين فريقين من التركمان في تلك الفترة (القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين)، والغريب أن بوشكين كان مطلعاً على تلك المعارك

وعلى علامات كل فريق. وعلى لسان حافظ يحذر الشاب التركماني الوسيم أن يلقي بنفسه في أتون المعارك الضارية بين فريقين من المسلمين ومن التركمان أيضاً. وهي معارك على المراعي والسلطة في مناطق القوقاس وفي منابع نهر الفرات في تركيا الحالية. وأحد الفريقين يلقّب بـ(قرة قويونلي) الخرفان السود، والفريق الآخر (آق قويونلي) الخرفان البيض.

وقد صدق بوشكين في توجيهه الحديث على لسان حافظ الشيرازي لهذا الشاب التركماني الوسيم أن يبتعد عن هذه المعارك، ليس لأنه يخشى عليه من الموت، فالموت لن يختطفه رحمة بشبابه وجماله. ولكنه يخشى عليه من أن يفقد هناء النعيم والحياء وأن يتحول إلى مقاتل شرس كل همّه الانتصار في ميدان الوغى على أقاربه من الفريق الآخر من التركمان.

وقره باخ هي منطقة في جمهورية أذربيجان وتدّعيها أرمينية ووقعت بين أرمينية وأذربيجان معارك قبل بضعة أعوام. ورغم الهدوء الظاهري إلا أن عودة الشغب متوقعة في أي وقت.

بوشكين والقوقاز

لقد أعجب بوشكين بالقوقاز وطبيعته الأخاذة كما أعجب برجاله الشجعان الكرماء البسطاء ونسائه الجميلات العفيفات. وقد أثار القوقاز خيال الأدباء والشعراء الروس، فقد سبق

بوشكين في وصف القوقاز الشاعر درجافين، كما أن معاصر بوشكين الشاعر جوكوفسكي أنشد قصائد في القوقاز، وإلى كليهما أشار بوشكين في قصته الشعرية «أسير القوقاز». كما أن تلميذه النابغة ليرمنتوف جعل للقوقاز نصيباً وافراً من قصائده. وكذلك فعل تولستوي بعدهم عندما جعل للقوقاس حظًّا كبيراً من قصصه.

وفي القوقاز، وبين أهله الجبليين الشجعان والكرماء، عرف بوشكين تعاليم الإسلام عن كثب وسمع القرآن يُتلى فازداد إعجابه بالقرآن وبهؤلاء القرويين البسطاء، وأنتج العديد من القصائد والقصص الشعرية عن تجربته تلك التي استمرت ست سنوات.

وفي قصيدة **القوقاز** ترجمة د. طارق مردود، يقول بوشكين واصفاً جمال جبال البروز:

القوقاز أسفل منّي. وحيداً في القمّة
أقف على الثلوج عند حدود الجداول
يحلّق دون رفيف معي على استواء
نسرٌ صاعد من القمة البعيدة
أشاهد من هنا تشكّل السيول
وأول حركات الانهدامات الرهيبة

* * *

هنا تمشي السحاب بدلال أسفل منّي
ومن خلالها، متفجّرة، تهدر الشلالات
وتحتها جلاميد الأجراف العارية
هناك تحت الطحلب الهزيل شجيرة جافة
وهناك أيضاً أدغالٌ، ظلالٌ خضراء
حيث تزقزق الطيور وتتواثب الأيائل

* * *

هناك حتى الناس يعشّشون في الجبال
وتتسلّق الأغنام عبر الجداول الذهبية
وينحدر الراعي إلى السهول البهيجة
حيث يندفع **أراجفا**[1] في شواطىء ظليلة
ويختبيء المسافر الفقير في الوادي
حيث يلعب تيريك[1] ببهجة وحشيّة

* * *

يلعب ويزأر مثل وحشٍ فتيّ
رأى الطعام من خلف القضبان الحديديّة
ويضرب في الشاطىء في عدواه عبثاً

---

(1) أراجفا وتيريك إسمان لنهرين في القوقاس وتيريك هو الأكبر.

ويلعق الصخور جائعاً مهتاجاً
عبثاً!! ما من طعام له ولا سلوى
جلاميد خرساء تهصره بعنف

ونهر تيريك شديد الجريان عنيف بين الجبال، له صوت مثل زئير الأسد، وكما يقول بوشكين:

ويلعق الصخور جائعاً مهتاجاً
عبثاً!! ما من طعام له ولا سلوى
جلاميد خرساء تهصره بعنف

وهو يهصرها كما تهصره، ويفتِّتها مع مضي الزمن.

قصيدة مسلم فقير

ويبدو تعاطف بوشكين مع القروي الفقير محمد، بشكل يثير الشفقة والإعجاب ففي قصيدة: **مسلم فقير** (ترجمة د. طارق مردود). يقول بوشكين:

منذ وقت عاش في يوزوف
مسلم بائس مع أولاده وزوجه
بروحه قرأ القرآن المقدّس
وكان سعيداً بقدره

* * *

محمدٌ ـ هذا هو اسمه ـ يرعى
بجدٍّ كل اليوم النحل والقطيع

والكَرْمُ المنزلي
لم يعرف ما هو الكسل
أحبَّ زوجته ـ عرفت ذلك فاطمة
وفي كل سنة ولدت له طفلاً
بعُرفنا ـ أصدقائي ـ هذا مضحكٌ
ولكن عند التتر ـ هذا يُحسد عليه
مرة فاطمة ـ كانت وقتها
حامل في الشهر الثالث والكلٌّ يرى
أنه في هذه الحالة
وحتى أكثر الزوجات رزانة
تستطيع أن تعتني بهذا وذاك،
يعلم الربُّ، ما هو؟!
قالت لزوجها بحنان:
عزيزي، أشتهي بشدة القيمق(1)
حتى إني أفقد رشدي وعقلي
وتحترق أيضاً معدتي
لم أنم طول الليل ـ وانظر يا روحي

(1) القيمق هي القشدة (القشطة). وللنساء في الوحام غرائب فهذه تتوحم لتأكل الطين وأخرى تتوحم لأكل القشدة أو غيرها من الأكلات. والعامة تعتقد أنها إذا لم تأكل ما توحمت عليه يظهر ذلك في جسم الجنين عند ولادته على هيئة شامة على أنف الطفل.

أنا اليوم بالتأكيد لست على ما يرام
لا أستطيع حتى أن أمتشطْ
ولكي لا ألدَ صغيراً على أنفه قشدة
مثل هذا العذاب لن أحتمله
أيها اللطيف الحنون الجميل، صديقي
إحصل لي على القيمق ولو قطعة صغيرة

* * *

انصاع محمد، تهيأ وأخذ
في كيسه صحناً سميكاً
بارك الأطفال، قبَّل الزوجة
وركض مسرعاً إلى السهل القريب
لكي يرضي المريضة
لم يمشِ، بل هو طار، فهو في طريق العودة
انزلق عبر الجبال، بالكاد ـ بالكاد ماشياً
وسرعان ما أخذ يبحث ـ منهكاً تماماً ـ
عن مكان ليستريح
لسعادته شاهد في
آخر السهل نهيراً
وصل إلى الشاطىء واستلقى في الأغصان
خرير الماء، قمم الأشجار

الأعشاب العطرية، الشاطىء البارد
والظل والنسيم العليل
كلها توسّلت، كلها قالت:
اعشق أو ارقد!! ـ اعشق!!
مثل هذا اللهو لا يخطر ببال محمد
هذا إذا استطاع ـ ولكن النوم
هذا جميل، معقول وأوثق
لهذا نام محمد في السهل مثل قيصر
لنفرض أنه أتيح للقيصر أن ينام براحة
تحت مظلّة على حشيّة ريش
وإن كان ذلك ـ للمناسبة ـ غريباً

* * *

وهي لفتة لطيفة من بوشكين.. حيث ينام هذا القروي البسيط قرير العين نومة لا يستطيعها القيصر... مهما أتوا له بالريش والحرير. فالمؤامرات التي يحيكها القيصر والتي تحاك ضده لا تترك له مجالاً للنوم الهانىء البسيط الذي ينامه محمد ذاك القروي البسيط الذي تعب في الحصول على القيمق (القشدة) لزوجته الحامل التي تتوحم وجعاً وشوقاً إليه.

القصة الشعرية

أسير القوقاس (القوقاز)

يبدو بوشكين في قصيدته الطويلة «أسير القوقاس» متعاطفاً مع القوقاس وأهله بعد أن امتلأ كآبة وضيقاً من نفيه من وطنه، واتهامه بشتّى التهم، ولكنه وجد سكينته في القوقاس وأرسل إلى صديقه ن. رايفسكي قصيدة شعرية قصيرة وأهداه القصة الشعرية «أسير القوقاس». وقال له:

في أيام الفراق الحزينة
ذكّرتني بالقوقاز
أصواتي الحالمة
حيث بشتوا[1] الضبابي الناسك الكبير
سيّد القُرى والحقول، خماسي الرؤوس
كان لي باراناس[2] الجديد
هل سأنسى قمّته الصوانية
وينابيعه الهادرة، وسهوله الذابلة
وصحاريه القائظة[3] وحوافيه، حيث وأنت معي

(1) بشتوا: أحد جبال القوقاز العالية الذرى.

(2) بارناس: جبل في اليونان مثل جبل الأولمب، يعيش فيه آلهة اليونان الأسطورية وبالذات أبولو إله الشباب والجمال، وموزا، إلّهة الشعر والفن عندهم.

(3) هذا وصف للقوقاز جيد بكل تنوعه.

تقاسمنا انطباعات النفس الفتيّة

* * *

وتبدأ قصيدة أسير القوقاس بوصف الشركس، وهو اسم يطلقه بوشكين على جميع سكانْ القوقاس، وإن كان الشركس هم سكان المناطق الغربية من القوقاس الممتدة إلى البحر الأسود. يقول بوشكين:

في القرية على أعتابهم
يجلس الشركس خاملين
أبناء القوقاز يتحدثون
عن القلاقل الحربيّة المهلكة
عن جمال خيولهم
وعن هناء النعيم البرّي
يتذكّرون الأيام الخالية
والغزوات الماحقة
حيل الأمراء المخادعين
وضربات سيوفهم الظالمة
دقّة رمايتهم التي لا تخيب
ورماد القرى المدمّرة
ولطف المسبيّات سوداوات العيون
تجري الجلسات في صفاء
القمر يسبح في الضباب الليلي

وفجأة، أمامهم على الحصان
شركسي أمسك بسرعة بحبله
أسيراً فتيًّا
ها هو الروسي[1]!! صرخ الوحش
هرعت القرية على صراخه
حشداً ضارياً
لكن الأسير فاتر وأصمّ
برأس مشوّه بقي دون حراك
لا يرى وجوه الأعداء
لا يسمع التهديد والصراخ
يطير فوقه شبح الموت
ويتنفّس برداً مهلكاً

(1) لقد هجم الروس على القوقاز في هجمات متتالية، واستخدموا الحيلة والخداع مع الأمراء المحليين ولكن لمّا لم يجدِ ذلك بسبب الثورات الجهادية التي أعلنها المريدون من الطريقة النقشبندية تحولوا إلى حرب إبادة، قتل النساء والأطفال والشيوخ، قتل كل ما يدبُّ على الأرض. حرق المزارع وتفريغ القرى من ساكنيها وجلب القوزاق وهم من فلاحي الروس الأشداء المقاتلين، ليبنوا مستوطنات في الأراضي المحتلة. وهي مستوطنات عسكرية تشبه تماماً المستوطنات الإسرائيلية، وقد قام الجنرالات الروس ببناء العديد من الحصون والقلاع ومنها جروزني (عاصمة الشيشان حالياً) ومعناها الرهيبة.

ويصف بوشكين معاناة الأسير الروسي، ولكنه لا يضرب ولا يهان، بل تقيّد رجليه حتى لا يتمكن من الهرب. يقول بوشكين:

طويلاً استلقى الأسير الشاب
في خمول ثقيل
ها هو منتصف النهار فوق رأسه
قد توهج بإشراق بهيج
مستدفئاً بشعاع الشمس
نهض التعيس بهدوء
يلقي حوله نظرة ضعيفة
فيشاهد جبالاً منيعة
فوقها انتصبت كتل عظيمة
عُشّ القبائل الغازية
سور الحريّة الشركسية. . .

* * *

الشركس في الحقول ولا رقيب
كل شيء صامت في القرية الفارغة
أمامه سهول خالية
تستلقي بساطاً أخضر
هناك تمتد الجبال سلسلة
متماثلة القمم

فيما بينها طريق وحيدة
اضطرب صدر الأسير الشاب
بفكرة ثقيلة
إلى روسيا يقود الطريق البعيد
إلى البلد الذي بدأ فيه بلا مشاغل

ويفكر الشاب في الهرب، ولكن كيف؟... لا مجال للحرية وهو مقيّد... غداً سيقتله هؤلاء الأشاوس...

تردّد من بعيد هدير صاخب
الشعبُ يعود من الحقول إلى القرية
ملوّحين بمناجل لامعة
عادوا، أوقدوا النار في البيوت
وبالتدريج هدأت الضجة.. الضجة الفوضوية
الكل في ظلمة الليل
يعانق الهناء الجبلي

* * *

وتأتي إليه فتاة تقدم له لبن الخيل المخثر (**الكميص**) والعسل (شهد القفير العطري) وجريش دُخن كالثلج، وتتقاسم معه العشاء السرّي مع نظرة حانية.

يقول بوشكين واصفاً مجيء الفتاة الشركسية في ضوء القمر:

ولكن من قلب السكون العميق
في ضوء القمر
تقف شركسية شابّة
صامتة مع تحيّة حنونة
ينظر إلى الفتاة صامتاً
ويفكّر: هذا حلمٌ كاذب
خدعة باطلة من المشاعر المُتعبة
مضاءةٌ بالقمر قليلاً
مع ابتسامة أسفٍ حانية
ثنت ركبتها
وقرّبت لشفتيه الكميص البارد. . .

* * *

ولكن النظرة الحنونة ولهيب الخدود يقول
عِشْ. كذلك الأسير يحيا

* * *

ويكل بصره الخابي
ينظر إلى الشركسية الشابة
وهي، طويلاً طويلاً أمامه
جلست حالمة
كأنها بالمشاركة الخرساء
أرادت تهدئة الأسير

افترَّ ثغرها بلا إرادة كل ساعة
مع بداية الكلام
وغير مرّة تنهّدتْ
وامتلأت عيناها بالدموع

* * *

واستمر الحال هكذا يوماً بعد يوم أو قل ليلة بعد ليلة، فهي لم تكن تزوره إلا بعد أن يهجع الجميع ويذهبون للرقاد فتأتي له بلبن الخيل الرائب (الكميص) والشهد الجبلي اللذيذ وجريش الدخن وتتقاسم معه عشاءها.

تثبت عليه نظرة حانية
تتكلم بحديث غير مفهوم
حديث العيون والإشارة
تغنّي له أيضاً أغاني الجبال

* * *

شبابنا لا يذبل فجأة
وليس فجأة تتركنا المباهج
فالسرور غير المنتظر
ما زلنا نعانقه غير مرّة،
ولكن أنتِ أيتها الانطباعات الحيّة
أيها الحبُّ الأول

يا شعلة السرور الإلهية
لا تحضرون مرّة أخرى

محبة بوشكين لأهل القوقاز

ويمضي بوشكين في وصف حالة الأسير الذي بدا وكأنه يستمتع بهذا الحب الفياض المتبادل بينه وبين الفتاة الشركسية الجميلة الهادئة، وبدت له أرض القوقاز بجبالها ووديانها وأنهارها جنّة حقيقية والسحب تحت أقدامه. ولفت انتباهه ذلك الشعب العجيب. وها هنا يحاول بوشكين أن يغيّر الصورة النمطية الموجودة لدى الروس عن أهل القوقاز.

لكن كل الانتباه الأوربي
جذبه ذلك الشعب العجيب
لاحظ الأسير بين الجبليين
إيمانهم وعاداتهم وأخلاقهم
أحبَّ بساطة حياتهم
كرمهم، وتعطّشهم للقتال
سرعة حركتهم الحُرَّة
وخفّة أرجلهم وقوّة سواعدهم
شاهد لساعات كاملة
كيف، أحياناً، الشركسي الرشيق
بخطوة واسعة عبر الجبال

بقبعة كثّة الفرو، بعباءة لبّاد سوداء
مائلاً إلى منعطف النهر، في التيار المندفع
متدبّراً بساقين ممشوقتين
يطير على حصان أصيل
إلى الحرب، يشارك فيها باكراً
تعجَّب من جمال الثياب
مزخرفة وبسيطة
الشركسي مدججاً بالسلاح
تفاخر به، وبه استكان
عليه درع، وجراب سهام وبندقية
وقوس كوباني، وخنجر، وحبل أنشوطه
وسيف، الصديق الأبدي
في أوقات فراغه وعمله
لا شيء يضايقه
لا شيء يزعجه: راجلاً فارساً
دائماً هو كذلك. دائماً نفس المظهر
لا ينهزم، لا يخضع
في زوبعة القوزاق المتهورين
ثروته جواد مندفع
دبيب القطعان الجبلية
رفيق أمين وصبور

* * *

إنه وصف جميل لهذا الرجل الجبلي الشديد الشجاع والبسيط، الكريم الأخلاق، ومع ذلك فهو معتزّ بحريته ولا يمكن أن يفرّط فيها مهما جاءت جحافل الجيوش الروسية، ومعها زوبعات القوزاق الأشداء الذين جلبتهم جيوش الأمبراطور والقيصر من مزارعهم وحقولهم ليستولوا على الأراضي الجديدة، وتجعلهم يقيمون المستوطنات المسوّرة والمحميّة بعشرات القلاع.

وشتّان بين الشركسي أو الشيشاني الحرّ والبطل، وبين الروسي المدجج بالسلاح وبالمكر وبالخديعة... وكيف يعامل الأهالي عندما ينتصر ويسيمهم الذّل والخسف ويبيد الأخضر واليابس. بل ويصف بوشكين أحد القواد الروس في القوقاز بأنه سوط عذاب للقوقاز وأنه اندفع كالعاصفة، كالوباء الأسود (الطاعون). يقول بوشكين:

يا كوتلياريفسكي يا سوط القوقاز
إلى حيث اندفعت كالعاصفة
مسيرك كالوباء الأسود
أهلكت، دمّرت القبائل

* * *

وهي صورة مناقضة لصورة الشيشاني أو الشركسي البطل ذي الأخلاق العالية النبيلة التي يحافظ فيها على وطنه وحريته

بشجاعة نادرة وسلاح بسيط، ويعامل أسراه بكل نبل وأخلاق لا يتصورها الأوربي أو الروسي حين يعامل أعدائه.

ويصرخ بوشكين: استسلم يا قوقاز: يرملوف قد جاء.

ويرملوف هو أشدُّ الجنرالات الروس الذين قدموا إلى القوقاس فملأوه دماء وأشلاء. لم يترك حجراً على حجر... قتل الرجال الأشاوس وقتل معهم النساء والشيوخ والأطفال. أعماله كلها كانت همجيّة تمثّل الرجل الأوربي حين يغزو أراضي الغير الذين يسميهم البرابرة والهمج... ولا همجي ولا بربري سواه.

لقد أذعن القوقاز لفترة لسيف يرملوف ومدافعه وجيوشه، ولكنه ثار بعد ذلك ثورات عنيفة.

استسلم يا قوقاز يرملوف قد جاء
خمدت صرخة الحرب المتعصّبة
الكل أذعن للسيف الروسي
أبناء القوقاز الأمجاد
قاتلتم، ضحّيتم كثيراً
ولكن دماءنا لم تنقذكم
ولا الدروع المتقنة
ولا الجبال ولا الخيول السريعة
ولا الحبّ البدائي للحرية...

واستسلم القوقاز لفترة، ولكنها لم تطل، فالثورات في القوقاز مستمرة إلى يومنا هذا بطولات إثر بطولات، وقصص من أساطير الجهاد مرويّة، دماء وأشلاء ترتوي بها أرض القوقاز في الشيشان والداغستان والشركس.

وقد حكى بوشكين قصة الفتاة الشركسية وكيف فكّت عنه القيد بالمنشار وجعلته يندفع إلى النهر الذي يفصل بينه وبين المعسكرات الروسية، فانطلق إلى حريته، بينما رمت نفسها في النهر، فحبّها لا حياة له، وأهلها إذا عرفوا فعلتها في فكّ الأسير الروسي لن يغفروا لها، ففضلت أن تموت وتغرق في أمواج النهر الهادرة.

* * *

ومرّة بعد مرّة يصوّر بوشكين حياة أهل القوقاز وشجاعتهم ونبلهم وطهارتهم ويظهر بينهم من يرفض الانتقام والتعطش للدماء، كما هي طبيعة الجبليين عندما يضامون...

قصة تازيت الشيشاني ومثله العليا:

ففي قصة تازيت الشعرية، يموت ابن أحد رجال الشيشان الأشداء في معركة ويخرج «غصوب» والده ومعه أهل القرية في جنازة للشاب المغدور. وبعد أن تتم طقوس الدفن للشاب يظهر شيخ ذو شعر أشيب ومعه شاب فتيّ. ويقول الشيخ للأب الملتاع: خذ هذا الشاب الذي ربيته ليكون شيشانياً شجاعاً...

خذ ابنك يا غصوب:

ها هو يمكن أن تسند رأسك
إلى كتفه القويّة
ستعوّض به خسارتك
ستقدِّرُ تعبي بنفسك
ولا أريد أن تطريه.

ينظر غصوب إلى ابنه الثاني (تازيت) الذي ربّاه شيخ شيشاني على القتال لمدة 13 عاماً، ويعانق ابنه بحنان. ثم يلاطف المربي، يشكره ويدعوه إلى تحت سقف بيته ويستضيفه ثلاثة أيام، ثم يودعه باحترام مع التبريك والهدايا.

تمرّ الأيام... حنا الحزن
في نفس غصوب. لكن تازيت
يحفظ كل انطوائه السابق

* * *

ويذهب إلى الغابات وإلى الجبال وإلى الأنهار الهادرة، ثم يختفي الابن تازيت ويعود بعد ليالٍ ثلاث، فيسأله الأب عمّا فعل فيخبره أنه ذهب إلى نهر تيريك (أكبر أنهار القوقاس)، فيسأله الأب: ألم تشاهد جورجيا أو روسيا؟ فيرد تازيت: رأيت أرمنيًا مع بضاعة جاء من تبليس:

الأب: هل كان معه حرس؟
الابن: لا لوحده

الأب: لماذا لم تفكر أن تصرعه بضربة مفاجئة
ولم تقفز عليه من الجرف
ابن الشركسي أطرقَ نظره غير مجيب بشيء
(وتازيت لا يستطيع أن يقتل تاجراً مسالماً لا سلاح له)
ثانية يمتطي تازيت الجواد
يختفي يومين وليلتين ثم يظهر في البيت.
الأب: أين كنت
الابن: خلف الجبل الأبيض
الأب: من قابلت
الابن: على التل العبد الهارب منا
الأب: يا للقدر الرحيم. أين هو؟ ألم تسحب الآبق بأنشوطة؟
يحني رأسه ثانية تازيت
عبسَ غصوب
وللمرّة الثالثة يذهب تازيت لمدة يومين ثم يعود، فيسأله أبوه: أين كنت؟
الابن: حول محطة كوبان قرب حدود الغابة
الأب: من رأيت؟
الابن: سوبوستان
الأب: من؟ من؟

الابن: قاتل أخي
الأب: قاتل ابني... تعال... أين رأسه؟
تازيت هذه الجمجمة تلزمني. دعني أنظر
الابن: كان القاتل وحيداً، مجرّحاً بلا سلاح
الأب: أنت لم تنس واجب الدم!!
أليس كذلك؟ سللت السيف وأخذت تغرزه في حنجرته

* * *

ولكن الابن صامت، مطرق ببصره
فغدا غصوب أقتم من الليل
وبتوعد صرخ إلى ابنه:
إذهب بعيداً، ليس لي إبن
لست شيشانياً، أنت امرأة
أنت جبان، أنت عبد، أنت أرمني
أنا ألعنك اذهب، لا أحد يسمع
عن تخاذلك شيئاً
وأنت تنتظر دوماً لقاءً رهيباً
وأن أخاك الميت على كتفيك
يدفعك إلى الهاوية بلا رحمة
وأن تكون مثل وعلٍ جريح
يهرب معانياً الألم
وأن ـ أطفال القرى الروسية ـ

قد اصطادوك بحبل
ومثل جرو الذئب عذّبوك
اغرب.. اغرب عني سريعاً، لا تدنّس عيني

* * *

وهنا تازيت لا يستطيع أن يقتل أرمنياً تاجراً بدون سلاح، ولا يستطيع أن يقتل قاتل أخيه سوبوستان لأنه جريح وحيد بدون سلاح... ولم يأت بالعبد الآبق بأنشوطة لأنه رحم العبد الآبق وتركه حُرًّا.

وكل هذه القيم النبيلة لا يفهمها الأب الشيشاني غصوب، لأنه إن لم يقتل قاتل أخاه فسيبقى دم أخيه عليه يطالب بالثأر، وإن لم يقتل الأرمني أو الروسي أو يأسرهم، فإنهم سيقتلونه أو يأسرونه، ويجعلونه في أُنشوطة يعذّبونه ويلعب به الأطفال الروس. والعبد الآبق لا يستحق إلا أن يربطه بأنشوطة ويأتي به إلى بيت أسياده ليعمل عملاً مضاعفاً نتيجة هربه وإباقه.

هنا قيم جديدة تظهر في القوقاز تواجه القيم القديمة. وبوشكين يصور ذلك كله بمهارة ودقة ويجعلنا، أو بالأحرى يجعل قومه الروس يتعاطفون مع القوقاز وأهله.

من أهم قصائد بوشكين

قصيدة النبي (أو الرسول)

تعتبر هذه القصيدة من أروع قصائد بوشكين، وقد اختارها الكاتب الشهير فيودور دستوفيسكي ليقولها أمام الجماهير في

الاحتفال بذكرى بوشكين وإقامة النصب التذكاري له عام 1880، وقد قرأها دستوفيسكي بانفعال شديد وبكى متأثراً بها وأبكى الجماهير وهو يقرأها بصوته المتهدج.

القرآن والسيرة ملهمان لبوشكين

لقد كان القرآن وسيرة الرسول ملهمان لبوشكين في العديد من قصائده وأهمها وأشهرها قصيدة النبي ومجموعة قصائد «قبسات من القرآن». والغريب حقاً أن يقول الناقد السوفييتي **براجينسكي**: «أصبح القرآن مصدراً للتعبير عن الأفكار البطولية والشجاعة الصلبة، والنضال المنكر للذات في الفترة التي سبقت حركة الديسمبريين»[1] وقد حدثت حركة الديسمبريين التي أيدها بوشكين وجدانياً عام 1825.

وكانت السيرة النبوية مثالاً يحتذى في الصبر على الأذى ومواصلة الكفاح من أجل الرسالة المقدسة. ولا أدلّ على ذلك مما قاله الأديب والثائر الديسمبري **تشادابيف** الذي أكّد على عظمة الرسول محمد ﷺ الذي حمل لواء الدعوة الجديدة

(1) براجينسكي: ملاحظات حول التركيبة الغربية الشرقية في الشعر الغنائي عند بوشكين «مجلة» «شعوب آسيا وإفريقيا» موسكو 1965 عدد (4) ص 124، نقلاً عن مكارم الغمري «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي» ص 134.

وجاهد حتى أظهرها الله وكانت صاحبة الفضل في الغليان الديني للشرق[1].

وقد نظم **بوشكين** قصيدته العظيمة الواسعة الانتشار النبي (أو الرسول) عام 1826 بعد هزيمة الديسمبريين وقتل قادتهم الكبار وإرسال الباقين إلى مجاهل سيبيريا وزمهريرها القاسي عام 1825. وفيها تتجلى روح بوشكين التي تستمد من سيرة الرسول محمد ﷺ الثبات على المبدأ والكفاح في سبيل القضية الشريفة التي من أجلها يبذل الرسول حياته في صبر وإيمان يبلغ بهما القمة السامقة التي ترنو لها البشرية.

تارنوفسكي يذكر أن قصيدة النبي هي قصة بداية الوحي لمحمد ﷺ

لم يكن قرّاء هذه القصيدة العجيبة ليدركوا أن بوشكين يشير إلى الرسول محمد ﷺ إلاّ نفراً قليلاً، منهم الأكاديمي **تارنوفسكي** (Tarnovsky) الذي أشار إلى أن قصيدة «الرسول» (أو النبي) لبوشكين هي تصوير لليلة المعروفة التي تُسمّى عند العرب ليلة القدر والتي ظهر فيها الملاك جبريل للرسول محمد ﷺ والذي ترك بصمته على قرون طويلة وشعوب عديدة وحضارات كاملة.

---

(1) تشاديف: مؤلفات وخطابات ج 2/ 166، 167 موسكو 1914، نقلاً عن مكارم الغمري، المصدر السابق.

تشرناييف والوحي

ومنهم الناقد الأدبي **تشرناييف** (Chernyahev)[1] الذي قال إن قصيدة الرسول تقصّ علينا كيف وهب الله النبوة لمحمد، وكيف أرسل رسوله جبريل إليه في الغار في مكة. وتقصُّ أيضاً لمحات من حياة الرسول بما فيها قصة شقّ الصدر وقصة المعراج. وقد برزت هذه الصور التي أوردها بوشكين منسّقة مع الروايات الإسلامية عنها، وهي لا تشير إلى أي رسول أو نبي كما يزعم بعضهم، بل تشير إلى رسول الإسلام محمد لارتباطها بوقائع لم تحدث لنبي غيره مثل شقِّ الصدر والإسراء والمعراج.

وقد أثارت قصيدة «الرسول» اهتماماً شديداً لدى جانب من معاصري بوشكين. وقد ظهرت قصيدة «الرسول» في مرحلة تأثر بوشكين الفكري والوجداني بالقرآن الكريم وسيرة النبي محمد ﷺ. وكانت شخصية الرسول «محمد» ﷺ تمثل الصورة الكاملة والمثل الأعلى للكفاح ضد الظلم والطغيان الذي كان يمثله النظام القيصري والطبقة الأرستقراطية الروسية المتعفّنة.

(1) مكارم الغمري نقلاً عن تشرناييف: رسول بوشكين في إطار مؤلفه «قبسات من القرآن» ص 24، في كتابها مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ص 141.

حسب الشيخ جعفر يتجاهل قصة الوحي

والغريب حقاً أن بعض من ترجموا قصيدة «النبي» أو «الرسول» تجاهلوا متعمّدين أن هذه القصيدة مستوحاة من سيرة النبي محمد ﷺ. ومن هؤلاء الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر[1]. وقد ترجمها حسب الشيخ جعفر بطريقة لا يستطيع القارىء أن يدرك فيها تأثر بوشكين بسيرة النبي محمد ﷺ. وهو اتجاه وجدته أيضاً في الترجمات باللغة الإنجليزية كذلك. والشيء ذاته يقال عن اللغات الأخرى، بل وفي اللغة الروسية ذاتها عندما يقرأها من لا يعرف السيرة فإنه لن يفهم مباشرة أن بوشكين يتحدث عن نبي الإسلام محمد ﷺ.

د. طارق مردود يتشكك

ونجد هذا الاتجاه مخفّفاً جداً لدى الدكتور طارق مردود

(1) حسب الشيخ جعفر من مدينة العمارة بالعراق. ولد عام 1942 وذهب إلى موسكو عام 1960 ليدرس الأدب الروسي ومكث هناك حتى عام 1966 ثم عاد إلى العراق متأثراً بالاتحاد السوفييتي والاشتراكية الماركسية اللينينية. وفي عام 1981 صدرت له قصائد مختارة لبوشكين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر وليس فيها القصائد المتأثرة بالقرآن «قبسات من القرآن» ولا القصائد الأخرى التي يذكر فيها العرب والإسلام، ما عدا قصيدة «النبي» لشهرتها. ومع هذا عندما أعادت مؤسسة أبو ظبي للثقافة والتراث «المجمع الثقافي» نشر مختاراته من الشعر الروسي عام 2008 فقد تم حذف قصيدة «النبي» هذه، تأكيداً لانتمائه الشيوعي العلماني وإبعاداً لنفسه عن تهمة الدين.

في كتابه: «بوشكين: القصائد الشرقية»، فقد اكتفى الدكتور طارق بمقدمة من بضعة أسطر جاء فيها أن بوشكين كتب قصيدة النبي عام 1824 (والصواب عام 1826) بعد معاقبة الثوار الديسمبريين (وثورتهم في ديسمبر 1825) تمثل فيها بوشكين رسالة الأنبياء الذين يتعذبون لكي يوصلوا أصواتهم إلى قلوب الناس. وأشار بعض الباحثين إلى أنها مستوحاة من قصة شقّ صدر الرسول محمد ﷺ في صباه.

د. مكارم الغمري ومالك صقور يكشفان الحقيقة

ولكني وجدت الدكتورة مكارم الغمري في كتابها «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي» قد أفاضت في الاستدلال بأن هذه القصيدة الرائعة والمشهورة إنما قالها بوشكين متأثراً بسيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ. وقد أحسنت في ذلك وأجادت. وسننقل ترجمتها بعد قليل.

وكذلك فعل مالك صقور في كتابه «بوشكين والقرآن». وقد أجاد وأحسن وأرجع كل مقطع من مقاطع قصيدة «النبي» إلى مواضع من السيرة أو من القرآن. فجزاهما الله خيراً على ما قدما.

وقد كانت الدكتورة مكارم الغمري والأستاذ مالك صقور واضحين في اتجاههما الإسلامي والعربي. وامتازت الدكتورة

مكارم بالاستشهاد بالعديد من الأدباء والنقاد الروس للاستدلال على ما تريد إيراده من إسلاميات بوشكين وتأثره القوي بالقرآن الكريم والسيرة العطرة لخير البرية محمد ﷺ.

ونبدأ أولاً بترجمة **حسب الشيخ جعفر لقصيدة «النبي»**:

شقياً تائهاً كنتُ في الصحراء المكفهرة
بروح يعتصرها الظمأ
وفي مفترق الطرق
انتصب أمامي الملاك ذو الأجنحة الستة
وبأصابع خفيفة كحلم
لامس عيني المغلقتين
فانفتحت لي عينان متكهّنتان
كعيني النسر المترقّبة الفزعة
ولامس أذني
فأترعهما بالضجة ورنين الأجراس
فأبصرت السماء وهي ترتعد
وطيران الملائكة في الأعالي
ودبيب الزواحف البحرية تحت المياه
وخمول الكرم في الأودية
ثم انحنى على شفتي
فاستأصل لساني الخاطىء
ذا الثرثرة والمكر

وبيمناه المدمّاة
أدخل في فمي المتجمد
زباني الأفعى الحكيمة
وانتزع قلبي المتزعزع
وفي صدري المنفتح
ألقى فحمة متأججة
فانطرحتُ كالجثة في الصحراء
وكان أن دعاني صوت الرب
ألا انهض أيها النبي ممتلكاً السمع والبصر
ممتلئاً بإرادتي
ولتجب البرّ والبحر
محرقاً بالكلمة الأفئدة.

وفي ترجمة **الدكتور طارق مردود** بعنوان **«النبي»**:

مضنى بالظمأ الروحي
تعذبت في صحراء مدلهمة
ظهر لي عند مفترق الطرق
سداسي الأجنحة سيرافيم
وبأصابع خفيفة كالحلم
لمس مقلتي
تفتحت الأحداق النبوية
كما عند النسور الفزعة

لمس أذني
وملأها ضجةً ورنيناً
فسمعت ارتجاج السماء
وطيران الملائكة العلوي
ومرور زواحف البحر تحت الماء
وتطاول الدوالي في خمول
التصق بشفتي
وانتزع لساني الخاطىء
الماكر الثرثار
وأدخل بيمناه المدمّاة
ناب أفعى شجاع
في شفتيّ المتجمدتين
شقَّ صدري بالسيف
وانتزع قلبي المختلج
وغرس إبرة محمّاة بالنار
في صدري المفتوح
ارتميت مثل جثة في الصحراء
أرسل الربُّ صوتاً إليّ:
انهض يا نبيّ، وانظر واستمع
نفّذ إرادتي
وعابراً البحار والأرض
ألهب بصوتك قلوب الناس.

ترجمة د. مكارم الغمري مع تعليقاتها وإضافاتي

وفي ترجمة **الدكتورة مكارم الغمري مع تعليقاتها الموفقة** والموضحة لهذه الكلمات المبهمة نرى إضاءات جديدة توضح مصدر هذه القصيدة وإلى من تشير. مع إضافات في التفسير والتعليق مني.

يقول بوشكين في هذه الترجمة:

يضنينا عطش الروح
وفي الصحراء الموحشة كنا نتمدد
[ثم يظهر الملاك (السيرافيم)]

في التراث المسيحي السيرافيم هي الملائكة المسبحة حول العرش. ويبدو من الترجمة التي اطلع عليها بوشكين مع تعليقاتها عن القرآن أنها أشارت إلى السيرافيم أو إلى إسرافيل، ولكنها قطعاً لم تذكر جبريل عليه السلام. وميكائيل هو الملاك الذي ينزل بالرحمة والوحي عند اليهود. ولذا قالوا للرسول: من صاحبك؟ فقال لهم: جبريل. قالوا: ذاك عدونا ينزل بالعذاب. لو كان ميكائيل لاتبعناك. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ

بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: الآيات 97 ـ 99].

وأما ذكر بوشكين للسارافيم ذي الأجنحة الستة فقد ورد في سورة فاطر عن الملائكة أن الملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث (أي ثلاثة من كل جهة)، ورباع (أي أربعة من كل جهة)، قال تعالى في سورة فاطر ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فَاطِر: الآية 1] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (كما جاء في تفسير الشيخ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير ج 3/ 273): «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح منها ما قد سدّ الأفق». وقد أورده أيضاً البخاري في صحيحه في باب بدء الوحي.

ولعل بوشكين قد اطلع على مقالة بولديريف «رحلة محمد إلى السماء» في مجلة خبر أوربا عدد مارس 1815 (وكان بوشكين من قراء هذه المجلة) وفيها وصف لأجنحة جبريل الستمائة. وما بين الستة والستمائة علاقة.

ويرى بوشكين في قصة إنزال الوحي على محمد ﷺ أمراً هاماً. وهو أن الرسول (النبي) ينبغي أن يعدّ إعداداً خاصاً لتحمل مشاقّ الرسالة وتبليغها إلى البشر، وأن يتم تغيير كيان هذا الرسول ويحشى قلبه بالإيمان، ولسانه بالصدق، وجفانه

بالثبات والصبر، ويرى في الرسول محمد ﷺ مثله الأعلى فإن عليه أن يوقظ روسيا من رقدتها، وأن يحارب الظلم ويواجه القيصر وحاشيته والطبقة الأرستقراطية.

لهذا كله كان بوشكين ومن اقتدى به من أدباء روسيا يرون أن الرسول محمد ﷺ هو قدوتهم الأولى في مواجهة الظلم والطغيان، وفي مقدرته على الثبات والصبر وإيصال دعوته للناس كافة. كما أن القرآن فيه دعوة السمو الروحي والعدالة الاجتماعية وكلاهما منشود مطلوب:

فظهر لنا في مفترق الطريق
سارافيم ذو الأجنحة الستة
وبأصابع خفيفة مثلما في حلم
لمس قرة عيني:
فانفرجت مقلتاي النبويتان
كأنهما عينا نسر مذعور

ويشير بذلك إلى ما حدث للمصطفى من رهبة الوحي، فرجع إلى خديجة يرجف بها فؤاده، فقال: زملوني زملوني.

ولكن بوشكين اختار النسر القوي لكي يصف به الرسول حيث يتحمل ثقل الرسالة والقرآن الذي عجزت الجبال عن احتماله.

ويواصل بوشكين قصيدته التي تصور هذا الحدث الجلل وهو بدء الوحي:

فأصغيت إلى رعدة السماء
وتحليق الملائكة في الأعالي
وسريان حركة أغوار البحار
ونمو الكرمة النائية
انحنى الملاك على فمي
وبيده اليمنى المضرَّجة
وضع في فمي المشدوه
كل أقوال الحكمة

وهناك علاقة غير مباشرة في وضع أقوال الحكمة والوحي في فم النبي وبين ما ورد في القرآن في أول سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وقد ثبت في الصحيحين أن جبريل ظهر للنبي ﷺ وهو يتحنّث في غار حراء في ليلة القدر من شهر رمضان، فهزّه (غطّه) وقال له: إقرأ. فقال الرسول: ما أنا بقارىء. فغطّه ثانية وقال له: إقرأ. فقال: ما أنا بقارىء. وفي الثالثة قال: ما أقرأ؟ قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العَلق: الآية 1] . واهتز كيان النبي ﷺ لهذه الحادثة فرجع إلى خديجة يرجف بها فؤاده قائلاً: زملوني زملوني. ثم لما خاف ﷺ أن يتفلّت منه الوحي أمره الله بأن يستمع إلى قراءة جبريل وأنه لن ينسى القرآن

أبداً. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الاعلى: الآية 6] وقال تعالى للنبي محمد ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. وقد كان الرسول ﷺ يخشى أن يتفلّت منه القرآن ويحرّك به لسانه أثناء إلقاء جبريل الوحي فأمره الله سبحانه وتعالى أن يستمع إليه. وأن هذا القرآن سيحفظه النبي عن جبريل فلا يخشى تفلّته، وعليه أن يتّبع قراءة جبريل عليه السلام، والله سيوضح معانيه ويجعل في لسانه الحكمة وبيان القرآن.

وتخيّل بوشكين صورة للملاك وهو ينحني على فم الرسول وينزع منه لسانه وبدلاً منه يضع لسان الحكمة. وبما أن الحيّة في الميثولوجيا اليونانية تحمل في لسانها الحكمة فكذلك يصنع بوشكين ويجعل الملاك يضع حدّ الحية (أو لسانها) المليء بالحكمة بدلاً من لسانه. يقول بوشكين:

انحنى الملاك على فمي
وانتزع لساني الآثم
الخامل المراوغ
وبيده اليمنى المضرّجة
وضع في فمي المشدوه
حدّ الحية الحكيمة

وهذه هي ثقافة الرجل، وقد تبدو لنا غريبة، ولكنها عبّرت

عن مشاعره الحقيقية والصادقة في أن الله جعل على لسان محمد ﷺ الحكمة.

حادثة شقّ الصدر عند بوشكين

ويصف حادثة شق الصدر فيقول:

وشَقَّ صدري بسيفه
واقتلع قلبي المرتجف
وأقحم في صدري المشقوق
جذوة متأججة النيران
فانطرحتُ في الصحراء كالجثة
وناداني صوت الله:
انهض يا رسول، وأبصر
لبِّ إرادتي
وجُبِ البحار والأراضي
وألهبْ بدعوتك قلوب الناس

حادثة شقّ الصدر

أورد ابن هشام في السيرة قصة شق الصدر وهو طفل صغير في بادية بني سعد، وأن أخاه من الرضاعة ذهب يجري لأبويه فأخبرهم أن أخاه القرشي قد أخذه رجلان وشقّا صدره، ففزعا وهرولا فوجداه ممتقعاً، فخافا عليه فردّاه لأمه. وكان

عمره آنذاك ثلاث سنوات، ورُوي أنه كان ابن خمس سنوات فأتاه ملكان على هيئة رجلين يلبسان ثياباً بيضاء، فأضجعاه وشقّا صدره واستخرجا قلبه فشقّاه، واستخرجا منه علقة سوداء. وقالا: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم ملآه حكمة وإيماناً. ثم لأماه، فالتأم (الشقّ) بإذن الله تعالى. ثم ختماه بخاتم النبوة بين كتفيه كالطابع... وقالا له: يا حبيب، لا ترع أو لم ترع. إنك لو تدري ما يراد بك من [الخير] لقرّت عينك.

البخاري وشقّ الصدر

وقد أخرج البخاري في صحيحه (باب حديث المعراج ج 5/ 66) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسريَ به: بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحِجر[1] مضطجعاً، إذ أتاني آت فقدَّ. (قال وسمعته يقول: فشَقَّ ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي، ما يعني به؟ قال: من ثغره إلى شعرته. وسمعته يقول من قصّه[2] إلى شعرته). فاستخرج قلبي. ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة

(1) الحِجر: هو حجر إسماعيل في الكعبة. وهو من الكعبة ولم تستطع قريش بناءه عندما احترقت الكعبة ونقص ما عندهم من المال الحلال لإعادة بنائها فتركوا الحجر. قال ابن حجر: والمقصود بالحطيم ها هنا هو الحجر لا ما بين الباب وزمزم (فتح الباري ج 7/ 204 باب المعراج الحديث رقم 3887).

(2) القصّ: العظم في وسط الصدر Sternum وآخره أعلى البطن.

إيماناً. فَغُسِلَ قلبي. ثم حُشي. ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، (فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة[1]. قال أنس: «نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه»). انتهى حديث البخاري.

وقد تكرر حادث شق الصدر الشريف ثلاث مرات: **(الأولى)** عندما كان طفلاً في بادية بني سعد عندما كان مع حليمة السعدية. وفيها أن الملكين أخذا قلبه وشقّاه وأخرجا منه علقة سوداء، هي حظ الشيطان منه ثم ملآه حكمة وعلماً.

الثانية: قبل بدء الوحي مباشرة.

والثالثة: قبل الإسراء والمعراج مباشرة.

وفي هاتين الحالتين شقّا صدره الشريف وأخرجا قلبه وغسلاه وملآه حكمة وعلماً ولم يخرجا تلك العلقة المذكورة في حالة طفولته.

ابن حجر العسقلاني وشقّ الصدر

قال ابن حجر العسقلاني في الفتح كتاب مناقب الأنصار (باب المعراج ج 7/ 204 ـ 205):

---

(1) أبو حمزة هو أنس بن مالك راوي الحديث.

«وقد استنكر بعضهم وقوع شقّ الصدر ليلة الإسراء. وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد. ولا إنكار في ذلك. فقد تواردت الروايات به. **وثبت شقُّ الصدر أيضاً عند البعثة** كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (أو دلائل النبوة). ولكلٍّ منهما حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس فأخرج علقة فقال: هذا حظّ الشيطان منك. وكان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ثم وقع شقّ الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقّى ما يُوحى إليه بقلبٍ قوي في أكمل الأحوال من التطهير. ثم وقع شقّ الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة. ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرّة الثالثة كما تقرر في شرعه (في الوضوء ثلاثاً ثلاثاً). ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره، وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرّر منها. وجميع ما ورد من شقّ الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرّض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك. قال القرطبي في «المفهم»: لا يلتفت لإنكار الشقّ ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير. . . .».

«وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل

المعاني قد وقع كثيراً، كما مُثِّلت له الجنة والنار في عرض الحائط وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس». انتهى كلام ابن حجر العسقلاني.

وأما بوشكين فقد اختار حادثة شقِّ الصدر وغسل القلب لتكون قبل البعثة مباشرة لأهمية موضوع الرسالة وثقل مسؤوليتها وحملها. وقد أجاد بوشكين وأحسن الوصف والهدف.

انهض يا رسول وألهب بدعوتك قلوب الناس

وما أن تم شقُّ الصدر حتى اقتلع الملاك القلب المرتجف، «وأقحم في صدري المشقوق، جذوة متأججة النيران». ذهب الخوف والوجل ولكن هول هذه العملية جعل النبي ينطرح في الصحراء:

فانطرحت في الصحراء كالجثة
وناداني صوت الله:
انهض يا رسول وأبصر
لَبِّ إرادتي
وجُبِ البحار والأراضي
وألهبْ بدعوتك قلوب الناس

لقد امتلأ القلب إيماناً ونوراً وثباتاً، فمهما كانت الصعاب والمشاقّ فالرسول ﷺ يواجهها بقلب مطمئن متصل بنور الله.

ومنذ أن لمس الملاك (كما يقول بوشكين) قرة عيني:

فانفرجت مقلتاي النبويتان
كأنهما عينا نسر مذعور

وانفتحت الآفاق أمامه وانداحت الأسرار واتصل بخبر السماء. يقول بوشكين:

فأصغيت إلى رعدة السماء
وتحليق الملائكة في الأعالي
وسريان حركة أغوار البحار

هكذا انفتحت أمام بصيرة النبي ﷺ العوالم، وخاصة في رحلة الإسراء والمعراج، وانداح الزمان فاتصل بآدم ومن بعده من الأنبياء، ثم رأى الجنة والنار ومن سيدخلهما من السعداء والأشقياء. واتسع عالم الشهادة ليتّصل بعالم الغيب من سماء إلى سماء وما فيها من ملائكة مسبّحة وساجدة وراكعة.

وامتلأ قلبه بالحكمة والعلم والنور بعد أن شقّه الملك وحشاه بذلك النور الإلهي، وأما لسانه فلم يعد لساناً بشرياً، بل هو لسان النبوة الذي لا ينطق إلا بالحكمة والدعوة إلى الله:

إنهض يا رسول، وأبصر
لَبِّ إرادتي
وجُبِ البحار والأراضي

وألهبْ بدعوتك قلوب الناس

وقد قام ﷺ بالمهمة خير مقام، فنهض وحمل أثقال الدعوة وواجه الظلم والظلمات بنور الله الوضَّاء، واحتمل التكذيب والتعذيب والازدراء والتحقير والحصار في شعب بني هاشم حتى أكلوا الشجر، ثم بعد ذلك الدعوة في الطائف والسفهاء والصبيان يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، وهو في كل ذلك ثابت: «إن لم يكن بك عليَّ سخط فلا أبالي».

وقد جاب الأراضي والصحاري، وجاب من بعده أصحابه وحواريه وأتباعه البحار وأهوالها، وألهبوا بدعوته قلوب الناس، فوصلت من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي في أقل من نصف قرن بعد وفاته ﷺ. ولا زالت دعوته تلهب قلوب الناس في مشارق الأرض ومغاربها.

«وألهبْ بدعوتك قلوب الناس»

وقد استجاب الرسول ﷺ بالدعوة كما أمره ربه ابتداء بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 214].

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية 94].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المَائدة: الآية 67].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: الآيتان 1 ـ 2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: الآية 28] .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الانبياء: الآية 107] .

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية 119] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الاحزاب: الآية 45] .

ترجمة: د. شهاب غانم لقصيدة (النبي):

وترجم الشاعر الدكتور شهاب محمد غانم قصيدة «النبي» عن الإنجليزية، وترجمته ـ فيما أرى ـ أفضل من الترجمات الأخرى، وهي الآتية:

مهموماً بالظمأ الروحي
كنت أجرُّ خطايَ في بريَّةٍ غير ذاتِ زَرْع
عندما ظهر لي في مفترق الطريق
ملاكٌ ذو أجنحةٍ ستة.
وبأصابعَ من نورٍ، في مثل الحُلُم،
لمس حدقتيْ عينيَّ،
فاتسعت الحدقتان النبويَّتان،
كما لو كانتا لنسرٍ مذعور.
ولمس أذنيَّ

فامتلأتا بضجَّةٍ ورنين،
وسمعتُ رعودَ السماءِ
وتحليقَ الملائكةِ في الأعالي
وسرَيانَ زواحِفِ البحرِ تحت الماء
وتبرعُمَ الكُرومِ الأرضيَّة.
وألصقَ نفسهُ بشفتيَّ
وانتزعَ لساني
وبِيدِهِ اليُمنى المضرَّجة
زرع بين شفتيَّ المتجمِّدتين
لسانَ الحكمة.
وشقَّ صدري بسيفِهِ
وانتزع قلبي الخفّاق
وفي الصدر المفتوح
أدخل جمرةً ملتهبة.
وارتميتُ في البرِّيَّةِ مثل جثَّة،
وجاء صوتٌ من الله يناديني:
«انهض أيها النبيّ وشاهِدْ واسمعْ،
ونفِّذْ إرادتي،
وجُبِ البرَّ والبحرْ
والهبْ بالكلماتِ قلوبَ الناسْ».

ترجمة مالك صقور وتعليقاته

وترجم **مالك صقور** قصيدة «النبي» كالآتي:

عذبني عطش الروح
وأنا منبوذ في صحراء مقفرة
فجأة الملاك ذو الأجنحة الستة
ظهر لي على القارعة
بأصابع خفيفة كما في حلم
مسح على عيني
فانفتحت مقلتاي إلى الأعلى
مثلما عيني نسر خائف
ولمس أذني أيضاً
وأصغيت إلى اهتزاز السماء
وحركة أعماق البحار
ونمو أوراق الصفصاف النائية
انحنى على فمي
اقتلع لساني الآثم
الماكر المعقود
وزرع حكمة الحيّة
في فمي الظامىء
بيده اليمنى المضرّجة
وبسيفه شقَّ صدري

وانتزع قلبي المرتعش
ووضع في صدري المنشق
جذوة نار ملتهبة
وارتميت كالجثة في الصحراء
وجاءني صوت الرب
إنهض إنهض أيها النبي وأبصرْ
لَبِّ إرادتي
وجُبِ البرَّ والبحر
وألهبْ بدعوتك قلوب الناس

وذكر صقور أن بوشكين استلهم سيرة النبي محمد ﷺ، وأما ذكر الأجنحة الستة فقد أخذها من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: الآية 1].

ورجع إلى كتاب د. محمد حسين هيكل (حياة محمد)، ونقل منه قصة ذهاب النبي محمد ﷺ في طفولته إلى بني سعد (بالقرب من الطائف) مع مرضعته حليمة السعدية. وحادثة شقّ الصدر التي حدثت وهو في سن الثالثة، والتي شاهدها أخوه من الرضاعة فذهب يجري لأبيه وأمه يخبرهما أن أخاه القرشي قد أتاه رجلان فأضجعاه وشقّا صدره، فخافت حليمة السعدية وزوجها على الغلام ووجداه ممتقعاً، فأخذاه وضماه إليهما، ثم عادا به إلى أمه خوفاً أن يصيبه مكروه.

وقال مالك صقور إن بوشكين قد قرأ مقالة بولديرف «رحلة محمد إلى السماء» المنشورة في مجلة «بشير أوربا» التي كان مواظباً على قراءتها والتي نشرت له أولى قصائده كما نشرت محاضرات كايدانوف التي تناولت الإسلام وتعاليمه وسيرة الرسول محمد ﷺ.

ويقول مالك صقور إن بوشكين يتماهى مع شخصية الرسول من البيت الأول حتى النهاية. وهو يقصد نفسه حين يقول عذّبني عطش الروح (وهو كذلك إلى فترة التأمل في غار حراء والتي كان يقضيها الرسول قبل الوحي متحنّثاً حتى جاءه الوحي. وكانت فترة التأمل هذه دافعاً له للاستعداد لمشاق الرسالة وأثقالها. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية 5] وقد أعدّه لهذه الرسالة أيما إعداد. ومع ذلك فقد فجأه الوحي مما جعله يضطرب لذلك اضطراباً شديداً، ووقفت السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها وقفتها المشهودة حتى أزالت عنه ما أصابه).

وقد ذكر مالك صقور أن بوشكين وضع مقطعاً أخيراً يخاطب فيه نفسه:

انتفض انتفض يا نبي روسيا
اذهب إلى القيصر

وقد منعت الرقابة هذا المقطع الأخير وذكره بلاغوي في كتاب «درب بوشكين الإبداعي».

توضيح لا بدّ منه

وعلينا أن نوضح النقاط التالية بالنسبة إلى المقطع الأخير المحذوف من قصيدة بوشكين:

(1) إن كلمة النبي تستعمل في الغرب لكل من يتنبأ بالمستقبل، ولا علاقة لها عندهم بالوحي السماوي. ولهذا تستعمل بمعناها اللغوي. وهو أمر لم نعتد عليه في لغتنا العربية ونستنكره.

(2) إن بوشكين رأى في الرسول ﷺ قدوته في إعلان دعوته والصبر عليها. ويتماهى مع قصة الرسول والوحي وشقّ الصدر. ويرى أنه جدير أن يعلن لروسيا وللقيصر دعوته إلى العدالة والمحبة والمساواة بين أفراد المجتمع الروسي، وأن يقف ضد الظلم والاستبداد القيصري واستعباد مُلاّك الأرض للفلاحين وجعلهم عبيداً لها يباعون مع الأرض التي يعملون عليها، وهو ما عُرف بنظام القنانة في روسيا، والذي أدى إلى ثورات عديدة.

(3) أن بوشكين رأى في دعوة الإسلام العدالة والمساواة بين الناس كما رأى فيها أنوار الهداية والوحدانية. وأراد أن ينشر ذلك كله بين قومه فذكر ذلك في العديد من قصائده ومن أهمها (النبي) و(قبسات من القرآن).

ويقول مالك صقور إن روسيا احتفلت ببوشكين عام 1880 وأقامت له نصباً تذكارياً. وألقى الروائي الشهير دوستوفيسكي في هذه المناسبة قصيدة النبي هذه. وقد قرأها بانفعال شديد حتى اختنق بالعبرات. وانفعلت معه الجماهير

الروسية فبكت وثارت من أجل حريتها وعدالة قضيتها.

وصف الهجرة والغار

ووصف بوشكين هجرة الرسول ﷺ واختفائه في غار ثور خارج حدود مكة. ومعه أبو بكر رضي الله عنه والطلب من قريش يزداد وأبو بكر يزداد وجيب قلبه خوفاً على حبيبه المصطفى فيقول: «لو مدَّ أحد منهم بصره لرآنا»، فيرد عليه المصطفى ﷺ بقوله: «لا تحزن إن الله معنا». وجعل الله على الغار عنكبوتاً وحمامتين باضتا وعششتا على مدخله، فلما رآها رجال قريشٍ أيقنوا أن هذا الغار لم يدخله أحد منذ زمن. وأنزل الله سبحانه وتعالى قرآناً في ذلك. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية 40].

يقول بوشكين (ترجمة مالك صقور):

المغارة

في المغارة السرّيّة

في يوم الهروب

قرأت آيات القرآن الشاعرية
فجأة هدَّأت روعي الملائكة
وحملت لي التعاويذ والأدعية

وبوشكين معذور لأن آيات القرآن حتى بعد ترجمتها جذابة بنظمها وموسيقاها العذبة، والقرآن ليس بشعر ولا نثر، كما يقول طه حسين، بل هو قرآن معجز في ذاته وفي ألفاظه وفي نظمه وفي معانيه.

أنزل الله على محمد سكينته «وهدّأت روعي الملائكة» كما يقول بوشكين:

«وحملت لي التعاويذ والأدعية»

وهي أدعية قرآنية ونبوية حمته من عيون قريش وأذاهم ومكرهم بفضل الله ومنّه وجوده وكرمه.

قبسات من القرآن

قد ذكرنا أن «قبسات من القرآن» أو «محاكاة من القرآن» هي مجموعة قصائد أو مقطوعات عددها تسع، وضعها بوشكين عندما كان في القوقاس في منفاه عام 1824، وهي بالتالي نتيجة عدة عوامل:

(1) ما عرفه بوشكين عن إسلام جده لأمه إبراهيم هانيبال. وما حكته له جدته ماريا في طفولته عن إسلام جده سراً وعن القرآن العظيم.

(2) إعجاب بوشكين بالقرآن بعد أن قرأ ترجمة فيريفكين (Vervekin). ورغم أنها مترجمة عن الفرنسية وبها أخطاء كثيرة. إلا أن أسلوبها كان أفضل بكثير من ترجمة بوسنيكوف.

والقرآن الكريم قد أذهل بوشكين بما يوحيه من معان وأخلاق سامية والتمجيد للرحمن وعظمة الله وتوحيده. وكما يقول تشرنايف: «قد أذهل القرآن (الكريم) بوشكين في جوانب كثيرة منها أسلوبه الفذ وشاعريته وموسيقاه وكان أهمها دون ريب هو عقيدة التوحيد الخالصة وعظمة الله وجبروته ورحمته وقيوميته وصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى. كما أن القرآن يمثل ثورة ضد الظلم والاستبداد والنفاق الاجتماعي وهو دعوة للحق بالحق.

(3) ذهاب بوشكين إلى القوقاس منفياً، ومعرفته لأهل القوقاس الأشداء البسطاء والكرماء وسماعه القرآن منهم.

ترجمات ثلاث

وبين يدي ثلاث ترجمات للقبسات باللغة العربية. وهي كالآتي:

(1) ترجمة **الدكتورة مكارم الغمري** ضمن كتابها: «مؤثرات عربية وإسلامية». نشرتها عالم المعرفة، الكويت عام 1990. وفي كل قصيدة أو مقطع توضح الآيات التي يشير إليها بوشكين.

(2) ترجمة د. **طارق مردود**، الناشر دار علاء الدين للنشر دمشق عام 1999. وليس فيها توضيح للآيات المشار إليها.

(3) ترجمة **مالك صقور**: بوشكين والقرآن، دار الحارث، دمشق عام 2000. وفيها مقارنة بين كل مقطع والآيات القرآنية التي أشار إليها بوشكين، كما وضع فصلين أحدهما بعنوان: لماذا حاكى بوشكين القرآن؟ والآخر بعنوان: ماذا حاكى بوشكين في القرآن؟

القصيدة الأولى:

ترجمة د. **مكارم الغمري**:

أقسم بالشفع وبالوتر
وأقسم بالسيف وبمعركة الحق
وأقسم بالنجم الصباح
وأقسم بصلاة العشاء
لا لم أودعك.

ترجمة **طارق مردود**:

أقسم بالشفع والوتر
أقسم بالسيف وبالحرب المحقّة
أقسم بنجمة الصباح
أقسم بصلاة المساء
لا أنا لم أهجرك

ترجمة **مالك صقور**:

أقسم بالشفع والوتر
أقسم بالسيف ومعركة الحق
أقسم بنجمة الصبح
أقسم بصلاة العصر
كلا أنا ما تركتك

التعليق وتوضيح الآيات التي أشار إليها بوشكين:

والترجمات متشابهة. و«**معركة الحق**» هي نفسها «**الحرب المحقّة**». ونجمة الصبح أو نجمة الصباح هي نفسها النجم الصباح. وهي في الواقع كوكب الزهرة (فينوس) وهو الكوكب الذي رآه إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآيتان 75 ـ 76].

والقَسَمُ بالشفع والوتر موجود في سورة الفجر قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: الآيات 1 ـ 3].

وقد أشارت الدكتورة مكارم الغمري والأستاذ مالك صقور إلى ذلك. ولم تعلّق الدكتورة مكارم على قسم بوشكين «وأقسم بالنجم الصباح» «وأقسم بصلاة العشاء» بينما أشار مالك صقور إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: الآية 1] وهو أمر

ذكره بعض المفسرين باعتباره نجمة الزهرة أو غيرها من النجوم التي تهوي (وكلمة النجم في الاصطلاح الحديث هو الملتهب ناراً مثل الشمس والكوكب مثل الأرض والمجموعة الشمسية باردة).
«وأقسم بصلاة العصر» تشير إلى القسم القرآني «**والعصر**» وهو أحد المعاني التي أوردها بعض المفسرين. وهي الصلاة الوسطى عند أكثر أهل العلم.

وصلاة العصر هي صلاة المساء الأولى بينما جعلتها الدكتورة مكارم صلاة العشاء ويتفق المترجمان «لا لم أودعك» «لا أنا لم أهجرك» إلى الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: الآيات 1 ـ 3].

ويشير مالك صقور إلى السورة كاملة:

كلا أنا ما تركتك ← ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضّحى: الآية 3].

فعلى من أنزلت رحمتي ← ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضّحى: الآية 6].

ورعيته وهديته ← ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضّحى: الآية 7].

وحميته يوم المطاردة الصعبة ← ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضّحى: الآية 8].

والبيت الأخير، وحميته يوم المطاردة الصعبة، لا يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضّحى: الآية 8] بل يشير

إلى قصة الهجرة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية 40] . وقد صدقت الدكتورة مكارم الغمري في أن بوشكين يشير إلى هذه الآية الكريمة عندما قال: وحميته يوم المطاردة الصعبة. وقد ترجمت د. مكارم الغمري هذا المقطع كالتالي:

يا من في ظل السكينة
دسست رأسه حُبًا
وأخفيته من المطاردة الحادّة
ألست أنا الذي رويتك في يوم قيظ
بمياه الصحارى
ألم أهب لسانك
سلطة جبارة على العقول؟
اصمد إذن وازدري الخداع

وقد ترجمها مالك صقور:

ألست أنا الذي سقيتك ← ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: الآية 25] .

يوم العطش بماء الصحراء ← ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: الآية 26] .

أما وهبتك لساناً فصيحاً ← ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟

قَوْلِي﴾ [طه: الآيتان27 ـ28].

وعقلاً راجحاً فوق كل العقول.

والآيات التي أشار إليها مالك صقور بعيدة عما قاله بوشكين.

وعلى أي حال فأبيات بوشكين تدمج آيات في آيات، وتدخل جوانب من السيرة، فهي ليست ترجمة لمعاني القرآن، بل قبسات من معاني القرآن الكريم. وقد سقى الله النبي ﷺ وجنوده مراراً في الصحراء عندما نضب الماء وقلّ الزاد في معركة تبوك، وقبلها في صلح الحديبية، وبارك الله في الماء القليل حتى سقى الجيش بأكمله والماء يفور من بين أصابعه الشريفة. وذلك من معجزاته الكثيرة صلوات ربي وسلامه عليه.

وقول بوشكين:

ألم أهب لسانك
سلطة جبارة على العقول
اصمد إذن وازدري الخداع

يوضح مدى إعجاب بوشكين بالقرآن العظيم: إن هذه السلطة الجبارة على العقول واضحة جداً في هذا القرآن الكريم، وفي كلام النبي ﷺ. وقد كان بوشكين الشاعر المرهف ذا عقل جبار فخضع لهذا القرآن الكريم ذي السلطة الجبارة على العقول والقلوب.

وترجمة مالك صقور:

أما وهبتك لساناً فصيحاً

وعقلاً راجحاً فوق كل العقول

تشير بوضوح إلى اعتناء بوشكين بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته المعجزة، رغم أنه لا يعرف العربية، وفصاحة النبي محمد ﷺ. وإعجابه بعقله الراجح فوق كل العقول، فقد منحه الله سبحانه وتعالى أزكى العقول وأذكاها وأفضلها وأكثرها حكمة ونورانية.

ثم يقول بوشكين:

أحب اليتامى وقرآني

وبشر المخلوقات المهتزة

وقد أوصى القرآن الكريم باليتامى وأمر رسوله اليتيم بأن يحب اليتامى ويحسن معاملتهم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: الآية 9]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: الآية 10]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: الآية 2]، وقوله تعالى ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا

فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: الآية 6] ، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية 177] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 220] . والأحاديث الحاثة على الرفق باليتيم وحسن معاملته كثيرة جداً. وفيما سبق غنية.

أحب اليتامى وقرآني

وقول بوشكين: «أحبّ اليتامى وقرآني». يدل على محبته للقرآن الكريم وإعجابه به أيما إعجاب. ثم يقول بوشكين: «وبشّر المخلوقات المهتزة»، والآيات في القرآن الكريم التي تأمر الرسول محمد ﷺ بأن يبلغ الرسالة وأن يبشر وينذر كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المَائدة: الآية 67] ، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: الآية 48] ، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البَقَرَة: الآية 25] ،

وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المَائدة: الآية 99] إلى غير ذلك من الآيات التي حفل بها الكتاب الكريم.

القصيدة الثانية: «زوجات الرسول» ترجمة د. مكارم الغمري:

إيه يا زوجات الرسول الطاهرات
إنكن تختلفن عن كل الزوجات
فحتى طيف الرذيلة مفزع لكنْ
في الظل العذب للسكينة
عشن في عفاف. فقد علق بكنَّ
حجاب الشابة العذراء
حافظن على قلوب وفيّة
من أجلِ هناء الشرعيين والخجلى.
ونظرة الكفار الماكرة
لا تجعلنها تبصر وجوهكن
أما أنتم يا ضيوف محمد
وأنتم تتقاطرون على أمسياته
احذروا، فبهرجة الدنيا
تكدّر رسولنا
فهو لا يحب الثرثارين
وكلمات غير المتواضعين

شرّفوا مأدبته في خشوع
وانحنوا في أدب
لزوجاته الشابات المحكومات

القصيدة مستوحاة من سورة الأحزاب

وهذه الأبيات مستوحاة من سورة الأحزاب. ويتضح نفور بوشكين من بهرجة النساء واختلاطهن الشديد بالرجال في الطبقة الأرستقراطية. وقد رأينا بعد ذلك الأديب الكبير تولستوي ينفر تماماً من هذا الاختلاط الشديد وبهرجة النساء، ويمدح ما جاء به الإسلام من منع هذه البهرجة والتبرج، والاختلاط الشديد بين الرجال والنساء الذي يؤدي إلى انتشار الرذيلة وفساد المجتمع واختلاط الأنساب.

والآيات التي استوحاها بوشكين: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

[الأحزاب: الآيات 30 ـ 33].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: الآية 53] .

ترجمة مالك صقور وتعليقاته

وقد قام مالك صقور في ترجمته لهذه القصيدة أو المقطع بذكر الآيات أعلاه من سورة الأحزاب وأن بوشكين استلهم معانيها. والترجمة هكذا:

يا نساء النبي الطاهرات
إنكن تتميزن عن كل النساء
مرعبٌ لكنّ، حتى ظل الخطيئة
بهدوء وسكينة
عشن بتواضع. صار عليكن
أن تحتشمن بالحجاب
وتحافظن على القلب الوفي
من أجل النعم «شرعاً» وحشمة

واتقاء العيون الماكرة
كي لا ترى وجوهكن
وأنتم يا ضيوف محمد
الذين تأتون إليه للسهرة
احرصوا على ألا تزعجوا النبي
ولا تعكّروا دنياه
فله عقل المحسنين ولا يحب الثرثارين
والكلام القبيح الفارغ
كلوا من مائدته بتواضع
وانصرفوا محترمين
ولا تسيئوا إلى زوجاته.

ويقول **مالك صقور**: «يقتبس بوشكين أبيات المحاكاة الثانية من سورة الأحزاب الآيات 32، 33، و53، منتقلاً إلى موضوع آخر، وهو موضوع العفّة والحشمة، متخذاً من هذه الآيات مثالاً يُقتدى به، من حيث تعلّم الآداب العامة وحسن السلوك، سواء في موعظة النساء أو في آداب الضيافة، وحُسن التصرف في حضرة الرسول الكريم، الذي يكره الثرثارين والكلام الفارغ، وضياع الوقت في التوافه، فيما يستحي الرسول أن يطلب إلى الضيوف التخفيف من الزيارة، أو عدم الإطالة بالأحاديث عديمة الجدوى (ولكن الله لا يستحي من الحق).» (بوشكين والقرآن ص 103).

بوشكين وتولستوي يمجّدان الحجاب الإسلامي

والواقع أن بوشكين، ومن بعده تولستوي، كانا يكرهان حياة المجتمع الراقي الأرستقراطي حيث تتبرّج النساء ويختلط الرجال بالنساء وتكثر الخيانات الزوجية وتنعدم بالتالي الحياة الزوجية السعيدة. وقد كانا يُكبران دور المرأة والعائلة، وكلاهما يرى أن الإسلام قد حقَّق ذلك بتعاليمه النبيلة، ومنع التبرج وبهرجة النساء، والاحتشام في اللبس، وعدم اللين والخضوع في القول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض. وقد انتهت حياة بوشكين وليرمنتوف بالمبارزة بسبب تعرّض الوقحين من الطبقة المخملية الراقية لزوجاتهم بالمغازلة المفضوحة.. إنها مأساة مروّعة أن تنتهي حياة هذين الشابين المرموقين بالقتل بسبب تعرّض السفهاء الحقراء لزوجاتهم. ولو كانت آداب المجتمع، كما يدعو الإسلام، تمنع التبرج والبهرجة من النساء، وحفلات الرقص الماجنة مع شرب الخمور التي تفقد العقول، وتأتي بالفواقر والفواجع، فتلتهب العواطف ويبدأ الغزل الماجن، وينتهي إلى تحطيم البيوت والخيانات الزوجية والمعارك والمبارزات، لما قتل هذين الشابين العبقريين هدراً، وقد صدق أولئك العباقرة من أمثال بوشكين وليرمنتوف وتولستوي في أن آداب المجتمعات الغربية يجب أن تتغيّر، وأن تحذو حذو التعاليم الإسلامية التي تمجّد العائلة والأسرة،

وتمنع التبرج والاختلاط وكل مقدمات الزنا، كما تمنع الخمور التي تلهب العواطف وتُلغي العقول وتفسد الأخلاق.

وفي المقطع الثاني يستلهم بوشكين قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية 53] .

وبوشكين يستلهم آداب الزيارة ووجوب الاستئذان عند الدخول، والانصراف في الوقت المناسب دون إضاعة الأوقات فيما لا يفيد، بل في أحيان كثيرة فيما يضرّ، وعدم الإثقال على المضيف، وعدم التكلم مع النساء إلا فيما له حاجة. ووجوب غضّ البصر للرجل والمرأة. وعدم التبرج وإظهار الزينة من النساء. وهو أمر لا يدركه الغربيون ولا من يلهث خلفهم من أبناء المسلمين وذراريهم، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ دخلوه وراءهم. مع ما يحدثه هذا التقليد من فساد في الأخلاق وتحطّم للقيم. وهو ما يعاني منه أهل الغرب والعالم أجمع بسبب نشر هذا الفساد بوسائل لم تكن موجودة في عهد بوشكين ولا ليرمنتوف ولا تولستوي.

القصيدة الثالثة: اقتباس من سورة عبس

ترجمة د. مكارم الغمري:

وتجهَّم الرسول، وهو يتململ
بعد أن أحسَّ دنو الأعمى
ويسرع، لكن الرسول لا يقدر
أن يظهر له الحيرة
لأنه مع الكتاب السماوي معطي وثيقة
لك يا رسول، لا للخارجين،
بشّر بالقرآن في سكينة،
دون أن تجبر الكفار

قصة ابن أم مكتوم

وهو بذلك يشير إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: الآيات 1 ـ 13].

لا إكراه في الدين

وأما قوله:

بشّر بالقرآن في سكينة
دون أن تجبر الكفار.

فهو يشير إلى آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: الآيتان 21 ـ 22].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: الآية 99].

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 256].

والآيات الأولى من سورة عبس نزلت في عبد الله ابن أم مكتوم، وهو أعمى، وقد جاء إلى النبي ﷺ، والرسول مشغول مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم، وإسلام أتباعهم، وبينما كان الرسول مشغولاً بدعوة هؤلاء القوم جاء عبد اللّه بن أم مكتوم وهو يقول: يا رسول الله علّمني، فكره ذلك رسول الله وعبس (وابن أم مكتوم لا يرى ذلك). فنزل قرآن من السماء يعاتبه ﷺ في اهتمامه بصناديد قريش وعدم الاحتفاء بهذا الأعمى الفقير، وهو أمر جلل في ميزان الله سبحانه وتعالى ـ وقد صدقت أم المؤمنين عائشة عندما قالت: لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه السورة ـ ورسول الله ﷺ أعلى وأجلّ من أن يكتم شيئاً من الوحي.. والميزان الإلهي دقيق، وفي ميزان الله عبد اللّه بن أم مكتوم أفضل بدون ريب من صناديد قريش، ولكن الحبيب

المصطفى كان يرجو إسلامهم، وبإسلامهم يسلم أتباعهم، وإذا أسلمت مكة، تبعتها سائر بلاد العرب. فهذه الدعوة لا تحتفل بصناديد قريش إذا هم أعرضوا عنها، وبالمقابل تحتفي كل الاحتفاء بالرجل الفقير الأعمى الذي لا وزن له في مجتمع قريش. وقد كان رسول الله ﷺ يحتفي به أيما احتفاء بعد نزول هذه الآيات ويقول له: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي». وولاه إمرة المدينة عند خروج المسلمين إلى إحدى المعارك.

ترجمة مالك صقور

وقد ترجم مالك صقور هذا المقطع كالتالي:

عبس النبي وامتعض ← ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾

[عبس: الآيتان 1 ـ 2].

لسماعه اقتراب الأعمى

فيبتعد لا يجرؤ على العيب

عليه تظهر الحيرة.

الكتاب السماوي مرسل لك ← ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النّحل: الآية 89] .

أيها النبي وليس للمعارضين

بشّر بآيات القرآن بهدوء ← ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: الآية 68] .

ولا تُكره الكافرين ← ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

[البَقَرَة: الآية 256] .

وواضح أن بوشكين قد تأثر بسورة عبس كما تأثر بآيات أُخر.

ثم يستمر بوشكين في الاقتباس من سورة عبس في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: الآيات 17 ـ 32].

ترجمة د. مكارم الغمري:

علام يتغطرس الإنسان؟
على أنه جاء إلى الدنيا عارياً
على أنه يستنشق دهراً قصيراً
وأنه سيموت ضعيفاً مثلما ولد ضعيفاً؟!
ألا يعلم أن الله سيميته
ويبعثه بمشيئته؟
وأن السماء ترعى أيامه
في السعادة وفي القدر الأليم
ألا يعلم أن الله وهبه الثمار
والخبز والتمر والزيتون

ثم بارك جهوده
فوهبه البستان والتلَّ والحقل

ويترجم هذا المقطع **مالك صقور**:

لماذا يتكبر الإنسان؟
ألأنه جاء عارياً إلى هذه الدنيا
أم لأنه يعيش عمراً قصيراً
أو لأنه يموت ضعيفاً كما ولد ضعيفاً
ألا يعلم أن الله يميته
وإن شاء يبعثه
وأن السماء تحفظ أيامه الحلوة والمرة
أما أعطاه من كل الثمرات
قمحاً وتمراً وزيتوناً
ووهبه بساتين وهضباناً وحقولاً
وبارك أعماله

تكبّر الإنسان رغم ضعفه وهوانه

وقد تنبّه مالك صقور إلى أن بوشكين قال رباعيته:

لماذا يتكبّر الإنسان؟ بناء على ما قرأه من الآيات الكثيرة التي تعلّم التواضع مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: الآية 18].

وأما ضعف الإنسان فقد جاء في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: الآية 28] ، وأنه قد خلق من نطفة ومن ماء مهين قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية 4] . وفي سورة الحج وصف كامل لمراحل الخلق من النطفة إلى العلقة فالمضغة إلى الميلاد فبلوغ الأشد، ثم الضعف وأرذل العمر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: الآية 5] .

وقد ذكر تعالى أن الإنسان قد خلق من ضعف ثم بعد الضعف قوة ثم بعد القوة ضعفاً وشيبة. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: الآية 54] .

يتعجب الشاعر كيف يتكبر الإنسان وهو نطفة حقيرة، وهو من ضعف إلى ضعف، وقد أعطاه الله الحياة والقوة، ثم منحه الماء والقمح والتمر والزيتون ووهبه البساتين والحقول وبارك أعماله. فكيف ينكر هذا الإنسان المغرور هذه النعم والآلاء التي غمره الله سبحانه وتعالى بها. ثم ينتقل بعد ذلك إلى

وصف مشاهد القيامة ويوم الدينونة والرعب الذي يلحق الكفار وكيف تُكسى وجوههم بالذل والعار والغبار والنار ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ عبس: الآيات 40 ـ 42].

الصاخّة ومشاهد القيامة والنفخ بالبوق مرتين

ويستلهم بوشكين مشاهد القيامة من سورة عبس، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: الآيات 33 ـ 42].

ترجمة د. **مكارم الغمري**:

لكن الملاك سيعود مرتين
وسيدوّي على الأرض رعداً سماويًا
وسيفرّ المرء من أخيه
ويبتعد الابن عن أمه
ويمثل الجميع أمام الله
صرعى من الرعب
ويسقط الكفّار
يغطّيهم اللهب والغفار

ويتحدث بوشكين عن النفختين اللتين ينفخهما الملك إسرافيل: الأولى وهي نفخة الإهلاك، والثانية هي نفخة البعث. وقد أوضحها **مالك صقور** في ترجمته:

وينفخ الملاك بالبوق مرتين
ويقصف الرعد السماوي على الأرض
فيهرب الأخ من أخيه
ويفرّ الابن من أمّه
ويخضع الجميع أمام الله لاجئين
ويسقط الكافرون
ممسوخين من الرعب
معفّرة وجوههم باللهب والتراب.

وهي كلها صور قد عرضتها سورة عبس [33 ـ 42] ما عدا النفخ بالبوق مرتين.

وقد وردت النفختان في آيات مختلفة، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية 68].

فها هنا نفختان: الأولى هي نفخة الصعقة حيث يميت الله بها الكائنات، والثانية هي نفخة البعث. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: الآية 99]، وهي نفخة البعث أي النفخة الثانية. وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: الآية 51] وهي أيضاً نفخة البعث حيث يخرجون من الأجداث (القبور) يسرعون أي ينسلون.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [ق: الآية 20] ، وهي نفخة الصعق والموت.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٌ وَٰحِدَةٌ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً فَيَوۡمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: الآيات 13 ـ 16]. وهما ردفتان أو نفختان متتاليتان، قال تعالى ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: الآية 7].

وبما أنها نفخة أو صوت مرعب، فقد عبّر عنها سبحانه وتعالى بأنها الصاخّة فهي تصخّ الآذان، وهو ما تشير إليه النظرية الحديثة في تكوين الكون بأنه بدأ بالصاخة Big Bang وسينتهي أيضاً بالصاخة Big Bang﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 104] .

والخلاصة، أن بوشكين قد عرف أن الملك (إسرافيل) سينفخ في البوق نفختين: الأولى لإهلاك كل كائن إلا ما شاء الله. ثم يميت الله إسرافيل، فيقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: الآية 16] فلا يجيبه أحد لأنهم كلهم قد ماتوا. ويكون الجواب على لسان الحق سبحانه وتعالى ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية 48] . ثم يبعث الله إسرافيل فينفخ النفخة الثانية فيبعث الله بها جميع الخلائق. ثم يبدأ الحساب.

ولا شك أن بوشكين قد درس ذلك في تفسير ما أو في

كتاب عن الإسلام. لأنه من العسر أن يفهمها بمجرد قراءة ترجمة لمعاني القرآن الكريم. وبقية الأبيات استلهمها بوشكين من سورة عبس ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: الآيات 3 ـ 52].

القصيدة الرابعة: قصة النمرود مع إبراهيم عليه السلام

يستلهم بوشكين قصة النمرود الذي جادل إبراهيم عليه السلام وقد أبطره الملك وأنه يستطيع أن يحيي ويميت بأن يأمر بقتل هذا ثم يعفو عنه، وأن يميت من شاء بأمر منه. وذلك عندما قال له إبراهيم عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت. فاستكبر وتجبّر وقال: أنا أحيي وأميت. فردّ عليه إبراهيم عليه السلام: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب إن كنت قادراً وإلهاً كما تزعم، فبُهت الذي كفر ولم يحر جواباً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية 258].

وقد ترجمت د. **مكارم الغمري** ما قال بوشكين كالتالي:

معك يا قديم يا قادر
يا عظيم توهّم أن يتبارى
ممتلئاً بالكبرياء المجنونة
ولكن أنت يا إلهي، أفحمته
أنت تقول: أنا أهب العالم الحياة
وأعاقب الأرض بالموت
فيدي مبسوطة على كل شيء. (فقال الكافر):
وأنا كذلك، أهب الحياة
وأعاقب أيضاً بالموت
فأنا، يا ربِّ، ندٌّ لك
لكن خيلاء الإثم خفتت
من كلمتك الغاضبة
سأرفع الشمس من المشرق
فارفعها أنت من المغرب.

وقد ترجمها **مالك صقور كالآتي**:

معك أيها القوي القديم
جبّار توهم أن يراهن
ممتلئاً بجنون العظمة
لكنك أيها الرب: أذللت كبرياءه

أنت تقول: أنا أهب العالم الحياة
وأعاقب الأرض بالموت
وكفّي مبسوطة على كل شيء.
كذلك يقول هو: أهب الحياة
وأيضاً أعاقب بالموت
أنا مثلك أيها الرّبّ
لكنك تبدّل الخطيئة بالثناء
بكلماتك الساخطة:
أنا آتي بالشمس من المشرق
فأتِ بها (أنت) من المغرب.

وهي ترجمة مقبولة. ولست أدري هل قال بوشكين: لكنك تبدل الخطيئة بالثناء؟ لأنها خارج سياق الآية. ولم توردها مكارم الغمري.

القصيدة الخامسة: خلق السموات بغير عمد

يستلهم بوشكين في هذا المقطع أو القصيدة ما ورد في القرآن الكريم في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: الآيتان 10 ـ 11]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرّعد: الآية 2].

يقول بوشكين (ترجمة **مكارم الغمري**):

الأرض ساكنة، السماء بلا عمد
الخالق الذي نعتمد عليه
لن يسقط السيل على اليابس
ولن يقهرنا وإياك

ويترجمها **مالك صقور** هكذا:

هامدة هي الأرض
والسماء قباب
لا تسقط في الماء ولا على اليابسة
ولا تهبط علينا لتسحقنا

مقارنة ترجمة مكارم الغمري ومالك صقور

ويبدو لي أن ترجمة مالك صقور متسقة، فالله لا يسقط السماء على الأرض اليابسة ولا على الماء، ولا تهبط علينا السماء فتسحقنا.

وفي **المقطع التالي** من القصيدة يستلهم بوشكين آية النور قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور: الآية 35].

ترجمة د. **مكارم الغمري**:

لقد أضأت الشمس في الكون
وأضأت أيضاً السماء والأرض
مثل نبتة كتَّان تمتلىء بالزيت
تضيء في مصباح بلوري
صلِّ للخالق فهو القادر
فهو يحكم الريح في يوم قائظ
ويرسل السحب إلى السماء
ويهب الأرض ظل الأشجار

ولا شك أن المقطع الأول (الأبيات الأربعة الأولى ها هنا) مقتبسة من سورة النور وآية النور، وهو ما ذكره أيضاً **مالك صقور** في ترجمته:

أشعلت الشمس للدنيا كلها
وعمَّ نورك السماء والأرض
كشجرة مباركة تمتلىء بالزيت
تشع في مصباح كريستالي

والمصباح البلوري أفضل في الترجمة من المصباح الكريستالي.

صلِّ للخالق

وأما القسم التالي:

صلِّ للخالق فهو القادر

فهو يحكم الريح في يوم قائظ

ويرسل السحب إلى السماء

ويهب الأرض ظل الأشجار

فلم تشر إلى مصدره مكارم الغمري ولا مالك صقور. وهو مقطع يشعُّ إيماناً، وقد أخذه بوشكين من آيات كثيرة تأمر بالصلاة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: الآية 43]، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 45]، وقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 238]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النِّساء: الآية 103]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 23]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [هُود: الآية 114]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: الآية 31]، وهو سبحانه القادر الذي يرسل الرياح ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ﴾ [الأعراف: الآية 57]، فتسوق السحب في السماء وتحيي الأرض بعد موتها وتهب للأرض ظل الأشجار. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [فَاطِر: الآية 9]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِى

خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: الآيات 3 ـ 6].

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً، وقد نبّه بوشكين قومه إلى ذلك كله في أربعة أبيات. ولم تشر الدكتورة مكارم الغمري ولا مالك صقور إلى هذه الآيات مع وضوح كلام بوشكين في اقتباسه من معاني القرآن الكريم في هذا الصدد.

دعوة بوشكين الناس إلى الإسلام والقرآن

ويأتي المقطع الأخير في هذه القصيدة الخامسة رائعاً كل الروعة ويتجلّى فيه إيمان بوشكين بالقرآن الكريم، والدعوة إلى أنواره لكل قومه ولجميع البشر، فهو النور الذي يضيء لهم الطريق، وهو الحق الذي لا لبس فيه، وهو الصراط المستقيم.

يقول بوشكين (**ترجمة د. مكارم الغمري**):

إنه الرحيم: قد كشف
لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن الأعين

يا لله!! إنها دعوة صريحة، لا لبس فيها، نحو هذا النور

الذي أنزل على قلب محمد ﷺ فأضاء هذا الكون، فلننساب نحن أيضاً نحو النور. . ولتسقط الغشاوة عن الأعين. ذلك النور الذي أضاء قلب بوشكين الشاعر الملهم الرقيق الذي دعا قومه إلى الإيمان بهذا النور، بهذه الشفافية، بهذا السمو الذي جاء به محمد ﷺ.

والغريب حقاً أن الدكتورة مكارم الغمري لم تعلّق على هذا المقطع واكتفت بالترجمة، ولعلها رأتها أبلغ من كل تعليق واكتفت بقولها: «وينطوي المقطع الأخير على دعوة إلى الإيمان بروح القرآن الساطع وإلى ضرورة الاهتداء بنور القرآن الكريم».

أما **مالك صقور** فقد ترجم المقطع كالآتي:

هو الرحيم. على محمد
أنزل القرآن المقدس
بترتيله نقلنا إلى النور
وانقشعت الغشاوة عن العيون

ويعلق مالك صقور على ذلك قائلاً: «كثيرة هي الآيات التي تشير إلى تنزيل القرآن على الرسول العظيم. والشاعر يعتبر أن تنزيل القرآن، ونشره في الناس، قد نقلهم من الظلمات إلى النور. والغشاوة والضباب أو الظلام قد تبدَّد وانقشع، وهو في هذه الرباعية يؤكد المعنى الديني، والمعنى المجازي، أي النقل من الجهل إلى المعرفة، من الظلام إلى النور، وقد أكَّد الشاعر

هذا في قصيدة أخرى بعنوان «أغنية باخوس» «فلتحيا الشمس ويلعن الظلام»[1].

مالك صقور يذهب بعيداً إلى باخوس

ويبدو أن مالك صقور يتعمّد عدم التصريح بإيمان بوشكين الكامل بالقرآن ودعوة الناس وقومه إليه. ثم فجأة ينتقل إلى قصيدة أخرى لست أدري متى أو فيم قالها وهي بعنوان أغنية باخوس. وباخوس هو إله الخمر عند اليونان، فما المناسبة بين أغنية باخوس وهو عيد يحتفل به أهل اليونان القدماء بتحويل العنب إلى خمر ويقصفون ويلعبون ويرقصون، ويرتكبون فيه من الموبقات ما هو معتاد في تلك الحضارات الوثنية، والتي تقوم أوربا كلها عليها (قامت أوربا الحديثة على الحضارة اليونانية من ناحية الأساطير والفلسفة واعتمدت التقدم العملي عند المسلمين واستفادت منه). ولست أدري ما الذي دعا مالك صقور إلى إقحام هذه القصيدة عن باخوس إله الخمر عند اليونان في هذا الكلام النوراني عن القرآن.

هُو الرحيم. . على محمد
أنزل القرآن المقدس
بترتيله نقلنا إلى النور
وانقشعت الغشاوة عن العيون

(1) مالك صقور: بوشكين والقرآن، ص 119.

أو كما جاء في ترجمة د. مكارم الغمري:

إنه الرحيم.. قد كشف
لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن العيون

القصيدة السادسة: الجهاد في الإسلام ودفاع بوشكين عنه

تتناول القصيدة السادسة موضوع الجهاد في الإسلام. وهو موضوع هام، وخاصة في الغرب، حيث الهجوم مستمر منذ ظهور الإسلام إلى اليوم بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف وأن الجهاد عند المسلمين هو عدوان.

بوشكين يذكر أنواع الجهاد

ولكن بوشكين دافع عن الجهاد، بل وأعلى شأنه أيما إعلاء. وقد بدأ بوشكين قصائده بقصيدة «الرسول» أو «النبي» وهي توضح كيف تلقّى الرسول ﷺ الوحي، وكيف عانى من شدة تلقيه ما عانى، وكيف شُقَّ صدره وفتح قلبه حتى يكون أهلاً لتحمّل أثقال هذه الرسالة العظيمة وكيف حُشي بالحكمة، وكيف صار لسانه لا ينطق إلا بالحكمة ولا يدعو إلا إلى الحق، فهو نور على نور. وتتناول القصيدتان الأولى والثالثة من «قبسات من القرآن» مرحلة الدعوة بالموعظة الحسنة، أي المرحلة المكية

مع ما فيها من صبر ومعاناة وتحمل للأذى والضيم له ولأهل بيته ولأتباعه. وبقي على ذلك طوال ثلاثة عشر سنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيات 45 ـ 47].

وماتت خديجة رضي الله عنها وأرضاها، ومات أبو طالب في أثناء الحصار الظالم الذي اشتدّ على رسول الله ﷺ ومن معه من بني هاشم، وهو عام الحزن. وذهب رسول الله ﷺ بعد أن فقد الناصر والمدافع عنه داخل البيت وخارجه، (بموت خديجة وأبي طالب)، إلى الطائف لعلّ الله يهدي به ثقيف، فما وجد منهم إلا الأذى حتى سلّطوا عليه الصبيان والسفهاء يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين. . وقد هان على الناس ولكنه ثابت، يقول: «إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي»، فيكرمه الله سبحانه وتعالى بالإسراء والمعراج وبالمثول بين يدي الحق سبحانه وتعالى بعد أن يخترق السبع الطباق، حتى يصل إلى مستوى يسمع فيه صرير الأقلام، وحتى يقول جبريل: تقدم يا محمد فلو تقدمت خطوة واحدة لاحترقت (بهذه الأنوار). فيتقدم المصطفى ﷺ إلى مقام لم يبلغه ملك مقرب أو نبي مرسل ويصلي بعد ذلك بالأنبياء إماماً. فهو ﷺ إمام الأنبياء والمرسلين وقائد الغرّ المحجّلين.

وهدى الله الأوس والخزرج للإيمان، فهاجر رسول الله ﷺ

إلى المدينة المنورة. وقد وصف بوشكين الهجرة ومحمد ﷺ في الغار مطارد، وأبو بكر الصديق يرتعب خوفاً على حبيبه ونبيّه المصطفى، حيث يرى قريش فوق الغار «ولو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآنا» فيكون الردُّ من الحبيب المصطفى: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما».

وينـزل في ذلك قرآن ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية 40].

وقد قال في ذلك بوشكين في القصيدة الأولى من القبسات:

يا من في ظل السكينة
دسست رأسه حُبًّا
وأخفيته من المطاردة الحادّة

ثم نرى بوشكين ها هنا يشيد بالمواقف الجهادية للرسول ﷺ، وهو الذي نشأ في البادية يتيماً ثم جاءه الملاك فبشّر وأنذر، ومضى في ثبات وصبر يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ويصبر على الأذى حتى أذن الله له ولأتباعه بالقتال

لأنهم قد ظلموا ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: الآية 39] . وقد أُعجب بوشكين برسول الله ﷺ أيما إعجاب في السلم وفي الحرب، في الليل وفي النهار، في مودته وملاطفته لأهل بيته وللأطفال، وفي مواقفه في ميادين القتال عندما يذهل الشجعان. في تواضعه الجم وأدبه العظيم، وحياته وبطولته وجسارته، حتى أن أبطال الصحابة كانوا يلوذون به حين يستعرّ القتال. وقد أحسنت الدكتورة مكارم الغمري في تقديمها للقصيدة وأشارت إلى أن النقاد الروس رأوا في إشادة بوشكين بالجهاد الإسلامي النبوي تجسيداً ليأس الشاعر من بطولة الشعوب الأوربية وارتقابه للثورة الديسمبرية. . وهو إسقاط متعمد من هؤلاء لإبعاد الناس عن أنوار الإسلام وعن إعجاب بوشكين بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ إعجاباً ملك عليه أقطار نفسه حتى دعاهم صراحة إلى الإيمان بهذا الدين قائلاً:

إنه الرحيم. . قد كشف
لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن الأعين

ولكنّ الغشاوة، للأسف، رفضت أن تسقط عن الأعين، ولم تقبل روسيا دين محمد الذي دعاهم إليه بوشكين، وحوّروا كلامه وأوّلوه كما هو معتاد في هذه الحالات. وكم نحن

محتاجون لإعادة كلام بوشكين كما جاء دون تحوير وتأويل روسي يبعده عن الحق الواضح. وأن يُنشر ذلك على نطاق واسع في روسيا. وهو أمر واجب وفرض عين حتى تصل الرسالة المحمدية النورانية إلى هؤلاء الأقوام الذين وضعوا الحجب الكثيفة على أبصارهم. وفيهم من ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية 7]، كما أن فيهم من يرنو إلى الهدى ويبحث عن الحق.

بوشكين يستلهم سورة الفتح

وإليك قصيدة بوشكين السادسة التي تتحدث عن الجهاد وكيف كان يحلم بوشكين بمجيء المجاهدين في سبيل الله. وهو هنا يحكي قصة رؤيا النبي ﷺ في الحديبية (ترجمة د. مكارم **الغمري**) :

ليس باطلاً أن حَلمتُ بكم
في معركة، ورؤوسكم محلَّقة
وسيوفكم مضرَّجة
في خنادق، وفي بروج، وعند الأسوار

* * *

انصتوا إلى الدعوة المبتهجة
يا أبناء الصحاري الملتهبة

سوقوا إلى الأسر الإماء الشابات
اقتسموا غنيمة الحرب

* * *

لقد انتصرتم، فالمجد لكم
ويا للسخرية من ضعاف النفوس
فنداء الحرب لم يلبّوه
ولم يصدّقوا الأحلام الرائعة

* * *

وهم الآن في ندم
تفتنهم غنيمة الحرب
يقولون: خذونا معكم
لكنكم ستقولون: لن نأخذكم

* * *

الشهداء الساقطون في المعركة
هم الآن في الجنّة
يغرقون في نعيم
لا ينغّصه شيء.

وبوشكين في ذلك يستلهم قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ

ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: الآيتان 27 ـ 28].

وسورة الفتح تتحدث عن صلح الحديبية والتي انتهت بعودة المسلمين من عامهم ذلك دون أن يدخلوا البيت الحرام على أن يدخلوه في العام القادم. وقد تأثر المسلمون بذلك حتى قال عمر لرسول الله ﷺ: لِمَ نعطي الدنيّة في ديننا؟ فأخبره المصطفى ﷺ أن الله لن يضيّعه. ولما أمرهم بالحلق لم يحلقوا ولم يقصّروا، لما أصابهم من الغم، فأنقذتهم أم سلمة رضي الله عنها حين أشارت، ونعم الرأي رأيها، بأن يحلق رسول الله ﷺ أمامهم فاندفعوا يحلقون بعضهم لبعض. وكانت الحديبية فتحاً كما سمّاها الله سبحانه وتعالى. وكانت المعاهدة السلمية فرصة لأن تبلغ الدعوة الناس دون تشويش، فأسلم بعد صلح الحديبية أكثر ممن أسلم خلال المدة السابقة لها (13 سنة في مكة و6 في المدينة) فما أعظم بركتها. قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: الآيات 1 ـ 3].

وفي تلك الغزوة بايع الصحابة، وهم ألف وأربعمائة شخص، رسول الله ﷺ على الموت عندما بلغهم أن قريشاً قتلت عثمان رضي الله عنه الذي أرسله رسول الله ليفاوض قريش، ولم يكن الخبر صحيحاً. ولكن الله سبحانه وتعالى مدح الذين

بايعوه تحت الشجرة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: الآيات 18 ـ 20]. وقد أشار بوشكين إلى هذه الانتصارات وبدأها برؤية النبي ـ وهي حق ـ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية 27].

وتلى ذلك فتوح كثيرة، منها فتح خيبر وهو من أهم الفتوح، وقد وقع بعد عودتهم من الحديبية، وبعدها بعامين فقط تم فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: الآيات 1 ـ 3].

وقد فضح الله المنافقين من أهل المدينة والأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: الآيتان 11 ـ 12].

ولهذا عندما جاء الفتح أرادوا أن يشاركوا في الغنائم، فجاء الأمر الإلهي بردهم ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: الآية 15] .

وقد أبدع بوشكين في ذلك كله حيث قال مستخدماً وقائع متعددة (ترجمة **مالك صقور**):

ليس باطلاً أن حلمتُ بكم ← ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾

[الفتح: الآية 27] .

في معركة، ورؤوسكم محلقة
وسيوفكم مضرّجة
في خنادق، وفي بروج، وعند الأسوار

* * *

انصتوا إلى الدعوة المبتهجة ← ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ

عَنكُمْ﴾ [الفتح: الآية 20] - ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: الآية 19] .

يا أبناء الصحاري المأتهبة
سوقوا إلى الأسر الإماء الشابات
اقتسموا غنيمة الحرب

* * *

لقد انتصرتم فالمجد لكم ← ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: الآية 11] .

ويا للسخرية من ضعاف النفوس
فنداء الحرب لم يلبّوه
ولم يصدقوا الأحلام الرائعة

* * *

وهم الآن في ندم ← ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: الآية 15] .

تفتنهم غنيمة الحرب
يقولون: خذونا معكم

لكنكم ستقولون: لن نأخذكم

وفي المقطع الأخير يتحدث بوشكين عن الشهداء الساقطون في المعركة فهم في الجنة:

الشهداء الساقطون في المعركة ← ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: الآيتان 169 ـ 170].

هم الآن في الجنة
يغرقون في نعيم
لا ينغّصه شيء

وهي قصيدة مليئة بالإيمان وداعية إلى الجهاد ومدافعة عنه.

القصيدة السابعة: استلهام سورة المزّمل

ترجمة د. مكارم الغمري:

انهض أيها الوجل
ففي كهفك
مصباح مقدس
يضيء حتى الصباح
وبصلاة خالصة

تُنْحي يا رسول
الأفكار الشجيّة
والأحلام الشيطانية
وأقم الصلاة في خشوع
والكتاب السماوي
اقرأه حتى الصباح

وهي أبيات استلهم فيها بوشكين سورة المزمل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزّمل: الآيات 1 - 10].

وقد تنبّه بوشكين إلى أهمية جهاد النفس والإقبال على الله بالصلاة الخاشعة في الليل وقراءة القرآن وتدبره. وهو كله الزاد لمواجهة أثقال الدعوة بين الناس. والجهاد بالقرآن هو من أهم أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: الآية 52] فكما يكون الجهاد بالسيف يكون بالبلاغ وبالقرآن.

وقد ترجم مالك صقور ووضع بجانبها الآيات التي استوحاها بوشكين:

انهض أيها التقي ← ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾.

في مغارتك

فالسراج المنير

يشعّ حتى الصباح ← ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزّمّل: الآية 8].

بالصلاة الروحية

أبعد أيها النبي ← ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: الآيـة 40]. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النّحل: الآية 127].

الأفكار الحزينة

والرؤى المخادعة

وصلِّ حتى الصباح

واقـرأ بـخـشـوع ← ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: الآية 78].

الكتاب السماوي

حتى الصباح

وقد ذكر مالك صقور أن المحاكاة السابعة تختلف عما سبق والتي كانت بأسلوب التربيع (أي أربعة أبيات. . أربعة

أبيات) فهذه كلها اثني عشر بيتاً في نسق واحد.. ويذكر بوشكين هنا القرآن باسم الكتاب السماوي للدلالة على الوحي والتنزيل.. وفي مواضع أخرى يسميه القرآن، وتتضح علامات الإيمان:

وصلِّ حتى الصباح
واقرأ بخشوع
الكتاب السماوي
حتى الصباح

وهو إيمان عميق من شاعر رقيق عرف قيمة الإيمان والصلاة وأهمية قراءة القرآن بخشوع وتدبر، وهي صلاة نورانية روحانية تصل الأرض بالسماء.

القصيدة الثامنة: الإنفاق والصدقة من سورة البقرة

تعكس القصيدة الثامنة، كما تقول د. مكارم الغمري، «إعجاب بوشكين بسمة الكرم التي اقترنت بالعربي أكثر من غيره من شعوب العالم، فقد اشتهر العرب بالجود»..

والكرم هنا مرتبط بإعطاء الفقراء والمساكين بدون منّ ولا أذى. وقد أُعجب بوشكين بما ورد في القرآن الكريم من الحثّ على الإنفاق وإعطاء الفقراء والمساكين ما يحتاجون إليه بكل أريحية ونبل، مع التواضع وعدم المنّ والأذى. واستلهم ما جاء في سورة البقرة من الحثّ على الإنفاق، وتصوير الذي ينفق

ابتغاء مرضات الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء. والمثل الثاني هو جنة بربوة (مكان مرتفع) أصابها وابل (مطر عزير) فآتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فطلّ (مطر خفيف) فتؤتي الجنة أكلها كاملاً. بينما مثل الذي ينفق ماله ثم يتبعه بالمن والأذى كمثل صفوان (صخرة ملساء) عليها تراب فإذا نزل المطر أزال هذا التراب وظهرت الصخرة بقسوتها وصلابتها. ومثل الذي ينفق ماله رئاء الناس كمثل رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، في وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها. وهو في آخر عمره، وقد مسّه الكبر والضعف، فلا يستطيع إقامتها من جديد. وذريته صغار ضعفاء، هم في أشد الحاجة إليها. ولكن الرياء أحرقها وأذهب خيرها حينما يكون في أشدّ الأوقات حاجة لها.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

[البقرة: الآيات 261 ـ 266].

يقول بوشكين مستلهماً هذه الآيات الكريمات (ترجمة د. مكارم الغمري):

وأنتم تتاجرون بضميركم أمام الفقر المدقع
لا تنثر هباتك بيد مقتصدة
فالسماء تبغي الكرم الوفير
ففي يوم الحساب العسير، ومثل حقل خصيب
آه يا ناثر الخير
ستُجازى أعمالك بأعظم الجزاء
لكن إذا أسفت على عطاء الدنيا المكتسب
وأنت تناول السائل عطاءك الشحيح

وضيّقت من بسطتك الغيور
فاعرف أن لك هباتك، مثل حفنة تراب
غسلها مطر وفير عن حجر
فتُمحى، وينبذ الربُّ العطاء.

ويترجمها **مالك صقور** كالآتي:

متاجراً بالضمير حيال الفقر المدقع
لا تعط هباتك بيد شحيحة
لأن السماء ملأى بالجود والكرم
وفي يوم الحساب الرهيب
يتساوى الحقل والغيم
إيه يا ناثر الخير
نتائج أعمالك ستعود إليك.
إن أنت سخّرت أعمالك
في خدمة المال وكسبه
أو أعطيت فقيراً صدقة قليلة
ستقبض بكفِّك على اللؤم
واعلم أن عطاياك مثل حفنة غبار
يغسلها المطر الغزير من على الحجر
فتتلاشى، والله يرفض هذا العطاء.

وكلا الترجمتين تعطي بعض ما أراده بوشكين، ولا نزال نحتاج إلى شاعر فحل يحوّل هذه المعاني إلى شعر رائع رقيق.

ومع ذلك فإن كلا المترجمين قد بذلا جهداً يشكران عليه، خاصة وأن من ترجم بوشكين إلى العربية لم يشر إلى الآيات القرآنية إلا لماماً وبصورة مبتسرة. أما د. مكارم الغمري والأستاذ مالك صقور فقد أحسنا العمل وبذلا الجهد فجزاهما الله على ما قدما خيراً.

القصيدة التاسعة: قصة إحياء الميت (قصة عزير)

هذه القصيدة هي الأخيرة في مجموعة «قبسات من القرآن» لبوشكين. وقد استلهمها أيضاً من سورة البقرة في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فجعله الله عبرة وأماته مائة عام، ثم بعثه، فرأى الشمس في كبد السماء، فظن أنه نام يوماً أو بعض يوم. فأخبره الله تعالى أنه نام مائة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه لم يتغيّر ولم يفسد. ثم قال له: انظر إلى حمارك.. فوجده عظاماً نخرة. فأمرها الله، فقامت واعتدلت وارتفعت من وهدتها، ثم كساها الله لحماً أمام عينيه، ثم تحرك الحمار ونهق. ففغر فاه من الدهشة قائلاً: أعلم أن الله على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 259] .

وقال بعض أهل التفسير إن الآية نزلت في عزير لما رأى بيت المقدس وقد خرّبها نبوخذ نصر (بختنصر) البابلي وقد امتلأ حسرة وألماً وقال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه. وكان عزير شاباً يحفظ التوراة عندما أماته الله مائة عام، فلما بعث لم يبق أحد ممن يحفظ التوراة سواه، وعادت القدس (أورشليم) إلى قريب من سابق عهدها بعد أن أعاد الملك الفارسي قورش اليهود إلى فلسطين. وكان بذلك مصدراً لإعادة كتابة التوراة. ولذا يقال عزير (عزرا) الكاتب فهو الذي أعاد كتابتها ثم ضاعت أيضاً توراة عزير بعد وفاته بقرون. وكان عزير آية إذ كان أحفاده يبدون أكبر منه سناً وهو لا يزال شاباً بالنسبة لهم. وهو أحد آيات الله الباهرة على قدرته على إعادة الخلق والبعث والنشور. وقد استخدم بوشكين هذه القصة في إطار مختلف نسبياً حيث يقول بوشكين **(ترجمة د. مكارم الغمري)**:

وتذمّر إلى الله عابر السبيل المتعب
فقد أضناه الظمأ والحنين إلى الظلّ

وضلَّ في الصحراء ثلاثة أيام وثلاث ليال
وأرهق القيظ والغبار مقلتيه
وبحسرة يائسة استدار حوله
فشاهد فجأة بئراً تحت النخلة

* * *

فأسرع الخطى نحو نخلة الصحراء
وبتيار بارد روى في نهم لسانه
وقرّت عيناه شديدتا الالتهاب
ورقد، قرب حماره الوفيّ
ومرّت فوقه سنوات طويلة
بمشيئة ربِّ السماء والأرض

* * *

ثم أتت للعابر ساعة الاستيقاظ
فنهض وسمع صوتاً غير مرئي:
أنمت عميقاً في الصحراء من زمن؟
فيجيب: هاذي الشمس عالية
كانت تسطع (البارحة)[1] في سماء الصباح
ونمتُ عميقاً من الصباح حتى الصباح

* * *

(1) كلمة البارحة تعني الليل وكان ينبغي أن تغيرها: كانت تسطع نهاراً (مثلاً) أو يوم أمس.

لكن الصوت قال: آه يا عابر، لقد نمت أطول
انظر: رقدت شاباً ونهضت كهلاً
وقد فنيت النخلة، أما البئر الباردة
فقد نضبت وجفّت في الصحراء القاحلة
وحملته من زمن رمال السهول
وابيضت عظام حمارك

* * *

واحتوى العجوز حزن خاطف
وانتحب وهو ينكّس رأسه المهتزّة
وآنذاك حدثت معجزة في الصحراء
فقد بعث الغابر في حسن جديد
ومن جديد تأرجحت النخلة برأسها الظليل
ومن جديد سرت في البئر برودة و«شبورة».
وانتصبت عظام الحمار المتداعية
واكتسى الجسد، وأصدر النهيق
وأحسَّ العابر بالقوة والبهجة
وتألق في دمائه الشباب المتفجّر
وملأ صدره الانشراح المقدّس
وانطلق مواصلاً طريقه مع الله.

وأما **مالك صقور** فقد ترجمها كالآتي:

إلى الله اشتكى عابر السبيل المنهك ← ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: الآية 259] .

يعاني العطش باحثاً عن ظل

بقي تائهاً في الصحراء

ثلاثة أيام وثلاث ليال

عيناه مغشيتان بالغبار والقيظ

حام كئيباً قانطاً حول الجبّ

الذي رآه فجأة تحت النخلة

فهرع إلى نخلة الصحراء

وبشراهة رطبّ لسانه المر

بدفق بارد ماسحاً عينيه

ثم استلقى ونام قرب حمارته الأمينة ← ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: الآية 259] .

ومرّت عليه أعوامٌ كثيرة ← ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ [الكهف: الآية 25] .

بإرادة سلطان الأرض والسماء

وحانت ساعة إيقاظ عابر السبيل ← ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: الآية 19] .

فاستيقظ على صوت غير مرئي ← ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البَقَرَة: الآية 259] .

كم من الزمن استغرقت في نومك

يجيب: كانت الشمس عالية البارحة،

والشمس كانت في الضحى

لقد غفوت من الصباح إلى الصباح

الصوت: لا يا عابر السبيل، لقد نمت طويلاً

انظر: نمت شاباً واستيقظت عجوزاً

والنخلة صارت رماداً

والجبُّ البارد

جفّ وغارت مياهه

منذ زمن في رمال الصحراء

واهترأت عظام حمارتك ← ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾

[البَقَرَة: الآية 259] .

حالاً سيطر الحزن على الشيخ

فأطرق مجهشاً بالبكاء

ساعتئذ حلت المعجزة في الصحراء

وانبعث الجديد من القديم

واخضوضرت النخلة وارفة الظلال ← ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ

أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 259] .

وفاض الجبُّ بالماء العذب
واكتست عظام الحمارة الفانية
فنهضت ونهقت
وأحسَّ عابر السبيل بالقوة والفرح
وجرت في دمه قوة الشباب
وحبور الإيمان بشرح صدره
وتابع طريقه برفقة الله

ولست أدري لماذا أقحم مالك صقور قصة أهل الكهف في قصة «عزير» الشاب الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال متعجباً ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية 259] .

ورغم تشابه قصة الموت والإحياء من جديد، إلا أن قصة كل واحد منهما تختلف عن الأخرى ولا داعي لربطهما معاً.

ويتجلى في هذه القصيدة إيمان بوشكين بالبعث كما جاء في القرآن الكريم. وهو يستخدم هذه القصة التي أوردها الله سبحانه وتعالى ليثبت لقومه قضية البعث كما جاءت في القرآن، وليبثّ فيهم روح الأمل بأن الله قادر على أن يهبهم حياة جديدة مليئة بالخير تسير على طريق الله، كما بُعث هذا الذي ضل في الصحراء ومات وبقي ميتاً مائة عام ثم بعثه الله من جديد وأعطاه الشباب والقوة ليواصل مسيرة الحياة مع الله داعياً إليه. وبوشكين في ذلك يرى أن المعجزة ستحدث في روسيا نفسها

وسيبعثها الله من جديد بعد هذا النوم الطويل الثقيل وسيهبها الحياة والشباب لتسير في طريق الله. ولا طريق سوى الإسلام والقرآن لتهتدي بأنواره.

سورة البقرة في القبسات من القرآن

وقد استلهم بوشكين من سورة البقرة القصيدة الرابعة، وهي قصة النمرود مع إبراهيم عليه السلام. قصة ذلك المتجبر الطاغية المتغطرس الذي يظن نفسه إلهاً يحيي ويميت. يأمر بقتل هذا ثم يعفو عنه فذلك حسب زعمه إحياء، ويقتل ذاك فهو إماتة. فرد عليه إبراهيم عليه السلام بالرد المفحم: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 258].

ويكمل الآيات التالية في قصيدته التاسعة: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية 259].

ثم ينتقل بوشكين إلى آيات الإنفاق ووجوب عدم المن والأذى، والصور الرائعة التي تعرضها الآيات الكريمات للمنفق

في سبيل الله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وصورة الذي ينفق ماله رياء ويؤذي المسكين بالمنّ والأذى فإذا عمله يغدو كتراب على صخرة ملساء صلداء جاء السيل فجرف ما عليها من تراب فظهرت قساوتها وصلابتها وعدم وجود الخير فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 264].

وقد أبدع بوشكين في استلهامه لهذه الآيات من سورة البقرة في قصيدته الثامنة من قبسات من القرآن. وهكذا نرى القصائد الرابعة والثامنة والتاسعة قد استلهمها بوشكين من الآيات 258 ـ 264 من سورة البقرة.

وهذه القصائد التي استلهمها بوشكين من القرآن الكريم تدل على انبهاره بالقرآن وحبّه له ودعوة الناس إليه. ويكفي في ذلك قوله:

إنه الرحيم.. قد كشف
لمحمد القرآن الساطع
فلننساب نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن الأعين

وكم هي البشرية محتاجة لأن تنساب مع بوشكين نحو النور، نحو القرآن، ولتسقط الغشاوة عن الأعين ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية 179]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآيتان 6 ـ 7].

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

المراجع

(1) **القرآن الكريم**

(2) محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، كتاب الشعب ـ القاهرة.

(3) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير): **تفسير القرآن العظيم**، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.

(4) محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت 1986.

الحديث

(5) البخاري (محمد بن إسماعيل): **الجامع الصحيح**، مطبعة الشعب ـ القاهرة.

(6) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): **فتح الباري، شرح صحيح البخاري**، المطبعة السلفية ـ القاهرة.

تاريخ

(7) ابن جرير الطبري (محمد أبو جعفر): **تاريخ الرسل والملوك**، مكتبة ابن تيمية، طبعة مصورة.

(8) ابن هشام (عبد الملك) المعافري: **سيرة ابن هشام**، دار الفكر للطباعة، بيروت، (طبعة مصورة).

(9) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي): **تحفة النظار في غرائب الأمصار والأسفار**، دار إحياء العلوم، بيروت 1996.

(10) ابن فضلان (أحمد بن فضلان): **رحلة ابن فضلان**، تحقيق د. سامي الدهان وتعليق شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2003.

(11) البار (محمد علي): **المسلمون في الاتحاد السوفييتي عبر التاريخ**، دار الشروق ـ جدة 1983.

(12) البار (محمد علي): **قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا**، شركة كنوز المعرفة ـ جدة 2009.

كتب عن بوشكين

(13) د. مكارم الغمري: **بوشكين عند نافورة الدموع، ومختارات أخرى**، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ـ 1999.

(14) د. مكارم الغمري: **مؤثرات عربيّة وإسلامية في الأدب الروسي**، عالم المعرفة رقم 155، الكويت، نوفمبر 1991.

(15) مالك صقور: **بوشكين والقرآن**، دار الحارث، دمشق 2000.

(16) د. طارق مردود: **بوشكين: القصائد الشرقية**، منشورات دار علاء الدين 1999.

(17) نجاتي صدقي: **بوشكين أمير شعراء روسيا**، سلسلة إقرأ (28)، دار المعارف ـ مصر ـ مارس 1945.

(18) حسب الشيخ جعفر: **مختارات من الشعر الروسي**، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، (المجمع الثقافي) أبو ظبي 2008.

(19) حسب الشيخ جعفر: **قصائد مختارة لبوشكين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1981.

(20) د. عبد الرحيم العطاوي: **الاستشراق الروسي**، المركز

الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت 2002.

الموسوعات

(21) **دائرة المعارف الإسلامية** بارتولد ومجموعة من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة ـ بيروت (طبعة مصورة).

(22) **دائرة المعارف البريطانية**، الطبعة 15 لعام 1982.

(23) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

(24) **عبر الإنترنت**

(جوجل) مواقع كثيرة باللغة العربية واللغة الإنجليزية.

ـ مكتبة الكونجرس.

ـ اليوكيبيديا.

المؤلف والمؤلفات

المؤلف:

السيد محمد بن علي بن حامد البار العلوي الحسيني.

وُلِد في مدينة عدن في 29/ 12/ 1939.

الشهادات الجامعية:

* بكالوريوس طبّ وجراحة (درجة الشرف)، جامعة القاهرة 1964م.
* دبلوم أمراض باطنيّة، جامعة القاهرة 1969م.
* عضوية الكليات الملكية للأطبّاء بالمملكة المتّحدة (لندن، أدنبرة وجلاسجو)، 1971م.
* زمالة الكلية الملكية للأطباء بلندن 1994م.

العمل والنشاط:

* مدير مركز أخلاقيات الطب، المركز الطبّي الدولي- جدّة.
* استشاري أمراض باطنية.
* مستشار قسم الطبّ الإسلامي بمركز الملك فهد للبحوث الطبية، جامعة الملك عبد العزيز (سابقاً).
* مستشار لرابطة العالم الإسلامي بمكّة المكرّمة
* خبير في المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي بمكّة المكرّمة.

* خبير في المجمع الفقهي الدولي التابع لمنظّمة المؤتمر الإسلامي بجدّة.
* عضو مؤسس لهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة.
* عضو اللجنة العليا لموت الدماغ بالمملكة العربية السعودية.
* عضو اللجنة العليا لزرع الأعضاء بالمملكة العربية السعودية.
* شارك ولا يزال في أنشطة المركز الوطني لزرع الأعضاء وشارك في الدورات التي ينظمها المركز للأطبّاء والممرّضات العاملين في حقل زرع الأعضاء بإلقاء المحاضرات.
* حضر وشارك في مئات المؤتمرات العلمية الطبيّة، والطبيّة الأخلاقية في العديد من بلدان العالم.
* حاضر في العديد من الجامعات والندوات في العالم العربي وخارجه وخاصة في مجال أخلاقيات الطبّ.
* شارك في وضع مناهج أخلاقيات الطبّ في العديد من الجامعات.
* شارك في مؤتمرات الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة.

المؤلفات:

* نشر مئات المقالات العامّة والمقالات المتخصّصة في العديد من البلدان باللّغتين العربية والإنجليزية.

(1) خلق الإنسان بين الطب والقرآن (الطبعة الثالثة عشرة).

(2) الخمر بين الطبّ والفقه (الطبعة السابعة).

(3) العدوي بين الطبّ وحديث المصطفى (الطبعة السادسة).

(4) الوجيز في علم الأجنّة القرآني.

(5) التارات السبع: أطوار الخلق في القرآن والسنّة.

(6) دورة الأرحام.

Human Development as Revealed in the Holy Quran . (7)

The Problem of Alcohol and its Solution in Islam. (8)

Contemporary Topics in Islamic Medicine. (9)

(10) التدخين وأثره على الصحّة (الطبعة الخامسة).

(11) هل التدخين والتبغ من المحرّمات؟

(12) التبغ والتدخين: تجارة الموت الخاسرة (الطبعة الثالثة).

(13) الموقف الشرعي من التبغ والتدخين (الطبعة الثالثة).

(14) اقتصاديات التبغ والتدخين.

(15) الأضرار الصحيّة للمسكرات والمخدرات والمنبّهات.

(16) المخدّرات، الخطر الداهم: الأفيون ومشتقّاته.

(17) الإعجاز الطبيّ في أحاديث التّداوي بالخمر.

(18) الموقف الشرعي والطبّي من التداوي بالكحول والمخدّرات.

(19) مشكلة الخمور والمخدّرات: نظرة إلى الجذور واستشراف الحلول.

(20) الآثار الفسيولوجية للمسكرات والمخدّرات.

(21) مشاكل طبّية فقهية تبحث عن حلول: أحكام التّداوي.

(22) مشاكل طبّية فقهية تبحث عن حلول: مداواة الرجل للمرأة ومداواة المرأة للرجل ومداواة الكافر للمسلم.

(23) مشاكل طبّية فقهية تبحث عن حلول: المشاكل الاجتماعية والفقهية لمرض الإيدز.

(24) مشاكل طبّية فقهية تبحث عن حلول: ضمان الطبيب.

(25) مشاكل طبّية فقهية تبحث عن حلول: التداوي بالمحرمات.

(26) الطبيب: أدبه وفقهه، بالاشتراك مع الدكتور زهير السباعي.

(27) المسؤولية الطبية بين الفقه والقانون، بالاشتراك مع الدكتور حسّان شمسي باشا.

(28) أخلاقيات البحوث الطبية، بالاشتراك مع الدكتور حسّان شمسي باشا.

(29) الرعاية الصحية: مشاكل وحلول، بالاشتراك مع الدكتور حسّان شمسي باشا والدكتور عدنان أحمد البار.

(30) الذكورة والأنوثة بين التصحيح والتغيير والاختيار، بالاشتراك مع الدكتور ياسر صالح جمال.

(31) الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها.

(32) موت القلب أو موت الدّماغ؟ (الطبعة الثانية).

(33) طفل الأنبوب والتلقيح الاصطناعي.

(34) أخلاقيات التلقيح الاصطناعي.

(35) الخلايا الجذعية والقضايا الفقهية والأخلاقية.

(36) سياسة ووسائل تحديد النسل في الماضي والحاضر.

(37) مشكلة الإجهاض.

(38) الجنين المشوّه والأمراض الوراثية.

(39) الفحص الطبي قبل الزواج والاستشارة الوراثية.

(40) الصوم بين الطبّ والفقه، بالاشتراك مع الدكتور حسّان شمسي باشا.

(41) الصوم وأمراض السُّمنة.

(42) الاعتداء على الأطفال: الوضع العالمي.

(43) الأمراض الجنسية: أسبابها وعلاجها.

(44) الإيدز وباء العصر، بالاشتراك مع الدكتور محمد أيمن صافي.

(45) السنا والسنّوت، (من الطبّ النبويّ العلاجي).

(46) ماذا في الأمرين من الشّفا، (من الطبّ النبويّ العلاجي).

(47) الإمام علي الرضا والرسالة الذهبية، (كتابه في الطبّ النبويّ).

(48) الطبّ النبويّ لعبد الملك بن حبيب الأندلسي.

(49) ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، للإمام السيوطي.

(50) هل هناك طبّ نبويّ؟

(51) الأحكام الفقهية والأسرار الطبيّة في تحريم الخنزير، بالاشتراك مع د.سفيان عسولي ود. خالد أمين محمد.

(52) زرع الجلد ومعالجة الحروق.

(53) زرع الكلى والفشل الكلوي.

(54) المشاكل الأخلاقية والفقهية في زرع الأعضاء.

(55) موسوعة سنن الفطرة: الختان.

(56) موسوعة سنن الفطرة: السواك.

(57) دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة.

(58) علم التشريح عند المسلمين.

كتب عن اليهود والنصارى:

(59) تيه العرب وتيه بني إسرائيل.

(60) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود.

(61) المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم.

(62) الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم.

(63) دراسة في العقائد النصرانية المعاصرة.

(64) من يعقوب ابن كلس وابن النغريلة إلى مونيكا لوينسكي.

(65) تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسّعية.

(66) القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ.

كتب أخرى:

(67) عمل المرأة في الميزان.

(68) أبحاث في العدوى والطبّ الوقائي (من أبحاث هيئة الإعجاز العلمي، بالاشتراك مع عدّة باحثين).

(69) جزيرة سقطرى: الجزيرة السحرية.

(70) التركستان: مساهمات وكفاح.

(71) المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ (مجلّدان).

(72) أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي (مجلد).

(73) كيف أسلم المغول؟

(74) إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن.

(75) معاملة غير المسلمين: شواهد من التاريخ.

(76) العلمانية أصولها وجذورها.

(77) ما هو الفرق بين الموت الإكلنيكي والموت الشرعي؟

(78) هل كان جوته شاعر الألمان مسلماً؟

(79) بوشكين شاعر روسيا، والقرآن الكريم.

(80) قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا.

(81) البوصيري شاعر المدائح النبويّة.

(82) مجادلة البوصيري لأهل الكتاب.

الفهرس

المقدمة .... 5 ـ 34

الفصل الأول: الإسلام في روسيا .... 35 ـ 60

الإسلام في القوقاس 35

الأدباء الروس في القوقاز 40

ترجمات القرآن الكريم إلى الروسية 42

قبسات من القرآن لبوشكين 46

الإسلام على ضفاف الفولجا

منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) 50

إسلام فلادمير ثم ردته 53

رحلة ابن فضلان 53

ابن بطوطة يصف مملكة البلغار والتتار 56

انقسام الدولة واستيلاء الروس عليها 57

الفصل الثاني: ألكسندر بوشكين .... 61 ـ 101

مولده وصفته 61

التعريف ببوشكين وقيمته في الأدب الروسي 62

تجميع مؤلفات بوشكين 69

تقدير الروس لبوشكين 72

مراحل حياة بوشكين 74

مولده ونشأته الأولى 74

تأثير النساء عليه 75
ظهور شاعريته وعبقريته المبكرة 79
بداية الثورة النفسية ضد ظلم القيصر والإقطاع 82
روسلان ولودميل» وتأثره بألف ليلة وليلة 84
النفي إلى القفقاس وإنتاجه الغزير 86
المنفى إلى ضيعة ميخايلوفسكي وإنتاجه فيها 91
القيصر يستدعي بوشكين 94
الذهاب إلى تركيا وقصيدة اسطمبول 95
زواجه 95
وفاته 96
مرثية ليرمنتوف 97
لمحة عن إنتاج بوشكين 98
الفصل الثالث: التأثيرات الإسلامية العربية في إنتاج بوشكين .....103 ـ 253
تأثر بوشكين بالقرآن كما يراه النقاد الروس 103
لماذا اهتم بوشكين بالقرآن؟ 107
قصيدة من وحي العربي 115
قصيدة تركتني ليلى 115
نافورة باختشي سراي 116
الذهاب إلى مكة 118
الذهاب إلى المدينة وبوشكين عاشق للرسول 118
قصيدة أخرى من وحي العربي 120
«روسلان ولودميلا» وتأثرها بألف ليلة وليلة 121
قصيدة «التعويذة» أو «الرقية» أو «الطلسم» 123
قصيدة اسطمبول ونقده لها لبعدها عن الإسلام الحقّ ... 125
اسطمبول 126

نبذة عن الدولة العثمانية ومعاركها مع روسيا 129
بوشكين يدعو اسطمبول لرفع راية الجهاد 133
دراسة بوشكين للإسلام واهتمامه بحافظ والسعدي 139
بوشكين والقوقاز 144
قصيدة مسلم فقير 147
القصة الشعرية: أمير القوقاس 151
أسير القوقاس (القوقاز) 151
محبة بوشكين لأهل القوقاز 158
قصة تازيت الشيشاني ومثله العليا: 162
من أهم قصائد بوشكين
قصيدة النبي (أو الرسول) 166
القرآن والسيرة ملهمان لبوشكين 167
تارنوفسكي يذكر أن قصيدة النبي هي قصة بداية
الوحي لمحمد ﷺ 168
تشرناييف والوحي 169
حسب الشيخ جعفر يتجاهل قصة الوحي 170
د. طارق مردود يتشكك 170
د. مكارم الغمري ومالك صقور يكشفان الحقيقة 171
ترجمة د. مكارم الغمري مع تعليقاتها وإضافاتي 175
حادثة شقّ الصدر عند بوشكين 180
حادثة شقّ الصدر 180
البخاري وشقّ الصدر 181
ابن حجر العسقلاني وشقّ الصدر 182
انهض يا رسول وألهب بدعوتك قلوب الناس 184
ترجمة د. شهاب غانم لقصيدة (النبي) 187

ترجمة مالك صقور وتعليقاته 189
توضيح لا بدّ منه 192
وصف الهجرة والغار 193
المغارة 193
قبسات من القرآن 194
ترجمات ثلاث 195
القصيدة الأولى: ترجمة د. مكارم الغمري 196
ترجمة طارق مردود 196
التعليق وتوضيح الآيات التي أشار إليها بوشكين: 197
أحب اليتامى وقرآني 202
القصيدة الثانية: «زوجات الرسول» ترجمة مكارم الغمري: .. 203
القصيدة مستوحاة من سورة الأحزاب 204
ترجمة مالك صقور وتعليقاته 205
بوشكين وتولستوي يمجّدان الحجاب الإسلامي 207
القصيدة الثالثة: اقتباس من سورة عبس 209
قصة ابن أم مكتوم 209
لا إكراه في الدين 209
ترجمة مالك صقور 211
ترجمة د. مكارم الغمري 212
تكبّر الإنسان رغم ضعفه وهوانه 213
الصاخّة ومشاهد القيامة والنفخ بالبوق مرتين 215
القصيدة الرابعة: قصة النمرود مع إبراهيم عليه السلام 218
ترجمة د. مكارم الغمري 219
ترجمة مالك صقور 219
القصيدة الخامسة: خلق السموات بغير عمد 220

ترجمة مكارم الغمري 221
مقارنة ترجمة مكارم الغمري ومالك صقور 221
صلِّ للخالق 222
دعوة بوشكين الناس إلى الإسلام والقرآن 224
ترجمة د. مكارم الغمري 224
ترجمة مالك صقور 225
مالك صقور يذهب بعيداً إلى باخوس 226
القصيدة السادسة: الجهاد في الإسلام ودفاع بوشكين عنه ... 227
بوشكين يذكر أنواع الجهاد 227
بوشكين يستلهم سورة الفتح 231
ترجمة د. مكارم الغمري 231
ترجمة مالك صقور 235
القصيدة السابعة: استلهام سورة المزمل 237
ترجمة د. مكارم الغمري 237
ترجمة مالك صقور 238
القصيدة الثامنة: الإنفاق والصدقة من سورة البقرة 240
ترجمة د. مكارم الغمري 242
ترجمة مالك صقور 243
القصيدة التاسعة: قصة إحياء الميت (قصة عزير) 244
ترجمة د. مكارم الغمري 245
ترجمة مالك صقور 248
سورة البقرة في القبسات من القرآن 251
المراجع 254
المؤلف والمؤلفات 256